مطبوعات مكتبة مصر

حكاية الليل والطريق

مجموعة قصصية

طه وادي

طبعة ثانية

١٩٩١

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مؤلفات طه وادى الأدبية

		طبعة أولى	طبعة ثانية
١ ــ عمار يا مصر	(مجموعة)	١٩٨٠	١٩٩١
٢ ــ الدموع لا تمسح الأحزان	(مجموعة)	١٩٨٢	١٩٩١
٣ ــ الأفق البعيد	(رواية)	١٩٨٤	١٩٩١
٤ ــ حكاية الليل والطريق	(مجموعة)	١٩٨٥	١٩٩١
٥ ــ الممكن والمستحيل	(رواية)	١٩٨٧	١٩٩١
٦ ــ دائرة اللهب	(مجموعة)	١٩٩٠	١٩٩١
٧ ــ الليالى	(سيرة ذاتية)	١٩٩١	١٩٩١

* * *

رقم الإيداع ٧١٢١ / ١٩٩١
الترقيم الدولى X - 0697 - 11 - 977

الإهــداء

إلى الأشقاء الغُرباء

أملاً .. فى لقاء

يفجِّرُ صمتَ الأشياء .

طه وادى

فهرس .. حكاية الليل والطريق

حكاية شرخ في الجدار

١ ـــ محاولة لمعرفة أصل الحدوتة :

انتابت عبد الله حسرة أليمة ، حين اكتشف فجأة شرخا هائلا فى الجدار الخلفى للبيت ـــ بيت عائلة المنصورى . أخذ يتأمل الجدار من الداخل مرة ومن الخارج مرات . استبد به الخوف والقلق . البيت ـــ بيت عائلة المنصورى ـــ على وشك التداعى .. وربما السقوط والانهيار . هذا البيت ورثه أبوه الحاج محمد رمضان عن الجد عبد الله المنصورى الكبير . الجد رمضان عبد الله المنصورى كانت له أكثر من زوجة . كبر أولاده وتزوجوا . كان لا يستطيع أن يفرق بين أحفاده ، وحين يعاتبه ولد صغير ، لأنه نسى اسمه ، يقبّله عند مَفرِق شعره ، ويقول مبتسما : كلكم أولادى .. كلكم أولاد المنصورى ، إن شاء الله تملأون البلد حركة وبركة .

أمرٌ واحد كان يثير حفيظة الجد رمضان ، ويحول الجمل العجوز إلى ضبع هائج ، وهو أن يرى أحدا يفعل ما يسىء إلى حرمة البيت الكبير . كم صاح فى زوجات أولاده وبناتهم قائلا : لا ترموا المياه بجوار الحائط يا أبناء الفاعلة . (يسعل بشدة فى فورة غيظه .) من لا يحافظ على داره لا يحافظ على شرفه .!!

ذهبت أيام ، وجاءت أيام ، يا سادة يا كرام ، وأصبح عبد الله كبير عائلة المنصورى . كان له إخوة كثيرون ، لكنهم تفرقوا فى بلادٍ تشمُّ

البترولَ وأخرى تحرقه . ترى لم خلف الجد رمضان المنصورى كل هذا العدد الكبير ،َ و لم لم ينصح زوجاته باستخدام حبوب الأمان ، أو حبوب أنفولار ٢١ أو حتى أنفولار ١١ . ؟ سامحك الله يا جدى رمضان .. أولادك كثيرون ، لكن هل يستطيعون أن يُرمموا الشرخ.؟!

٢ ــ محاولة أخرى لبيان أن الحبكة لم تتم :

أرسل عبد الله خطابات إلى إخوته ــ أولاد الحاج محمد رمضان المنصورى :

ــ مصطفى المنصورى .. مدينة أوتاوا بكندا .

ــ جلال المنصورى والعائلة .. مدينة برلين عن طريق ألمانيا الشرقية .

ــ حامد المنصورى وعروسه سوسن .. مدينة العين « بأبو ظبى » .

ــ فاطمة المنصورى وزوجها سالم .. مدينة مكة المكرمة .

وفى ظهر كل مظروف كان يكتب : (يصل فى خير وسلام .. وشكرًا لساعى البريد) .

مرت الليالى وطالت ، والشرخ يتسع يوما بعد يوم . صار عبد الله مهموما لا يهنأ بنوم أو طعام ، حتى زوجته نفيسة ــ ابنة عمه ــ غدا لا يكلم جسدها ولا يسافر فى بحار عيونها . يبدو أن إخوته قد نسَوا البيت ومن فيه ، فالذى يده فى الماء ليس كمن يده فى النار .

بعد مُضىِّ سبعة وستين يوما ، ذهب إلى أخيه الصغير عوض . عوض المنصورى تزوج فتاة جميلة ، لا بأس ... فالله جميل يحبُّ الجمال . كم تمنى

أن تكون زوجته نفيسة أو حتى ابنته رجاء ، تتمتع بقدر من جمالها الحلو ورشاقة قدها المياس . لكن من تحسبه موسى يكون فرعون . أصرت ابنة الملدوغة على أن تسكن فى بيت جديد .. بعيد . سامحك الله يا عوض .. لم تكن أخى .. وإنما ابنى البكر . ما كنتُ أظن أن امرأة تأخذك منّى .؟!

٣ — وما تزال الحكاية غامضة :

تاه عوض فى كرسى فوتيه ضخم . بدا مثل النملة ، وهو يحاول أن يبرر عجزه أمام أخيه . كانت أنفاسه متلعثمة وكلماته متقطعة ، حاول أن يقنع أخاه الذى يعول جيشا من الأطفال وكلهم فى المدارس ، أنه ليس فى حاجة إلى بيت كبير قديم ، وإنما إلى شقة حديثة . ماذا لو قبلت يا عبد الله طلب الأستاذ سالم الموجى زوج أختنا فاطمة ، إنه يريد شراء البيت بالسعر الذى تحدده .؟ كاد يلطمه بكفه العريضة ، وصاح محركا يديه صارخا :

— هل جننت يا عوض .. أكيد جننت يا عوض . البنت شربات خرقت عقلك . بيت عائلة المنصورى يأخذه سالم الموجى ويعمل فيه ورشة وبوتيكات ..؟!

دخلت شربات فى قميص نوم أحمر شفاف . وضعت كوبين من الشاى ، ومرقت سريعة متفادية النظر إلى عينى عبد الله . أحس عبد الله كبير العائلة ، أن ليست هناك عائلة ولا يحزنون . لقد ربّى إخوته وعلمهم حتى فى حياة أبيهم . لكن لا فائدة كل ما فعله من أجل الجميع ذهب

أدراج الرياح . لا أمل فى كبير ولا صغير . كل واحد مشغول بهمومه ومهامه . لا أحد اليوم يرى غير نفسه . فى حجرة الصالون مرآة معلقة على الحائط تبرز صورة نجفة الكريستال التى تتدلى من سقف الغرفة . لا فائدة فى الكلام .. ولا أمل فى رسالة تأتى . كان يظن أن له إخوة ، لكن ها هو وحيد .. والشرخ يتسع يوما بعد يوم . ترك بيت أخيه دون أن يصافحه ، ولسان حاله يقول : جيئتك يا عبد المعين تعيننى؛ فوجدتك يا عبد المعين تعبان .!!

٤ ــ أزمة عبد الله المنصورى :

وقف أمام الجدار المتصدع يتأمل الشرخ فى صمت حزين . لم يعد الشرخ فى الجدار فحسب . أحس أن الشرخ انتقل إلى كل شىء فى عالم الأحياء ، حتى الرأس ، رأس عبد الله أحس به وقد صار ثقيلا خربا من الصداع والتصدع . جسمه النحيل صار مثل عود الأذرة الجاف . غاض الوفاء ولا حياة لمن ينادى . أحس أن ريقه مرُّ المذاق . أين أيام الخير والبركة ، يوم كانت عائلة المنصورى يدًا واحدة . الجد رمضان المنصورى كان يجلس هنا وسط الدار ، وقد التف داخل عباءة سوداء ، يكلم كل الأولاد والأحفاد فى نفس واحد . شيخ قبيلة تملأ البيت حركة وبركة . عشرون فردا بأربعين يدا ، يأكلون حول صينية واحدة . يوزّع اللحم والفاكهة كما يشاء . يدُ الله مع الجماعة ، حكمة يرددها كثيرا ، وهو يعطى أى فرد من أبناء العائلة قطعة لحم بعد أن يأخذ منها قضمة . ينتظر

كل واحد دوره حسب سنه ومكانته فى نفس الشيخ . كان الجميع فى نظره أولادا حتى الزوجات والبنات . لم يكن يقول لأحد شيئا ، لكن الكل يعمل له ألف حساب وحساب . ذات يوم رفض جلال وهو طفل أن يذهب إلى الكُتّاب . انهال عليه بعصاه ضربا .. لن يذهب أحدكم إلى المدارس إلا بعد أن يحفظ شيئا من القرآن . أفاق من تأملاته وقد هاله ما بين اليوم والأمس ، أحس لدغة عقرب حين تذكر الغد . تأملته نفيسة فى حزن وهو يقف ساهما أمام الجدار المشروخ . الشرخ اللعين كان فى الجهة الخلفية ، لذلك لم يفطن إليه عبد الله ولا حتى زوجته . بدأ نور الشارع يطل من ثنايا الشرخ . الشرخ متعرج مثل أفعى رقطاء . إخوتك كثيرون وحالتهم طيبة ، لكن أحدًا لن يسمع شكواك يا عبد الله . نظرت إليه الزوجة فى حنو وإشفاق . أحس صداعا يفلق رأسه . سامحكم الله يا أبناء المنصورى ، ليس هذا بيتى وحدى .. إنه ليس حوائط ومنافذ ، إنه رمز لمجد غابر وعز حاضر .. إنه بيت الحاج رمضان المنصورى ، وبيت المنصورى يجب أن يستمر ... يجب أن يتوقف هذا الشرخ . ترى كيف يمكن أن يكون هذا ؟!

٥ ـــ كل عقدة ولها حلاَّل :

أحس عباس فراش المدرسة أن الأستاذ عبد الله مدرس اللغة العربية ليس كعادته . حاول أن يخفف عنه بعض همومه . يا أخى الهم يقصف العمر ، كل عقدة ولها عند عباس حلال . لم يكن من عادته أن يشكو

إلى أحد . ما فائدة أن تشكو للغريب وقد وضع أهلك أصابعهم فى آذانهم . بدا الحاج سامى الغرباوى المرابى فى صورة المنقذ . رجل حج بيت الله وصار كبير البلد ، بما آتاه الله من مال ، لا يعرف أحد من أين له هذا ، لكنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب . رفع الحاج سبابته فبدا فى خنصره خاتم ذهبى عريض ، وقال :

ــ لن أسلفك إلا بشرطين .

ــ ما تقوله على العين والرأس يا كبير البلد .

كان الشرط الأول هو أن يحدد الحاج سامى الطريقة التى يتم بها الإصلاح ، والمكان الذى يراه هو مناسبا للبدء فى إصلاحه ، مع أنه ليس صاحب البيت ولا يهمُّه أمره ، وشرطه الثانى ألا يعطيه المبلغ المطلوب مرة واحدة وإنما على أقساط ، فصاحبُ المال لا ينفق ماله إلا فيما يراه . إنه لم يضربه على يديه حتى يأتى إليه . وما دام قد أتى فعليه أن يقبل الشروط كاملة . اهتزت الدنيا أمام عينيه وهو يقول له أمرك يا حاج . أحس وهو يقبض القسط الأول أن الشرخ قد تحول إلى حبل من الكتان يلتف حول عنقه . تخيل امرأته عريانة فى مهبّ الريح ، وقد ظهرت بطنها المترهلة من كثرة ما أنجبت ، وتدلى ثدياها فى ارتخاء مُرّ . فقال فى سره كأنما يريد أن يطرد وساوسه : يا خفىَّ الألطاف نجّنا مما نخاف . !!

٦ ـــ عين الأعور :

أخذ الحاج سامى الغرباوى يناور ويحاور . حجته أن ضرب الأعور على عينه لا يُجدى فهى تالفة تالفة ، فلو بدأ المنصورى فى إصلاح الجدار الخلفى فقد ينهدم البيت كله . الحل الأفضل هو أن تقوى واجهة البيت وتصلح ، وبعد ذلك يبدأ فى إصلاح الناحية الخلفية ، وهو مطمئن إلى أن الجزء الآخر لن يفاجئه بما قد لا تحمد عقباه . ووعده أن يعطيه كل ما يطلب من مال ، فهو من أسرة طيبة هى أصل البلد كلها .. ومَنْ مِنَ الناس لا يعرف أفضال عائلة المنصورى ؟ بدأ عبد الله يدرك أن الذى معه قرش يستطيع أن يجد أى مبرر لكى ينفقه أنى شاء .!

اشتد تأثير الصداع ، وهو يرى العمال يُغيِّرون شكل الواجهة . صار البيت بيتا آخر . نظر إلى السماء فى عتاب وهو ينكر صورة لأخيه مصطفى، تنظر إليه فى سخرية وهو يأكل قطعة جاتوه بالشوكة والسكين .

٧ ـــ الواحد بدء الألف :

تغيرت واجهة بيت المنصورى . رمم العمال ما لا يحتاج إلى ترميم ، وطلوا الحائط الخارجى بالجير الملون . طلب أكبر الأبناء من أبيه أن يكون للواجهة لون واحد ، حتى يظل لبيت المنصورى وقاره . لكن الوالد كذب على ولده . كيف يقول له إن هذه أوامر الحاج سامى . أوهمه أن

هذه القطارات والسفن والطائرات،قد تكون فألا حسنا،ويحج أبوه إلى بيت الله ، ويدعوه سبحانه وتعالى أن يكشف الغمة .

أخذ يعد حبات المسبحة ، وتذكر أن نصف البيت مرهون ، والجزء الخلفي الذى به الشرخ لم يمس بعد .

باب البيت ـــ بيت المنصورى الذى كان لا يفتح إلا لاستقبال فرد من أبناء الأسرة ـــ صار الآن مفتوحا طوال النهار وجزءا كبيرا من الليل . واختلط العمال بالأسرة وصارت أدواتهم وملابسهم التى يعملون بها تحتل جزءا من البيت . رحم الله الجد رمضان المنصورى كان دائما يطلب من أبنائه أن يغلقوا باب البيت قائلا : إن الباب المغلق يمنع القضاء المستعجل .

قريبا سوف تنصلحُ الأحوال ، ويومَ ترى البنت شربات زوجة عوض البيت وبابه المفتوح على الدوام سوف تندم ، لأنها تركت بيت العائلة ، وتعيش فى شقة مثل حجر الأرنب . كل هذا من فضل الله ، وببركة الحاج سامى الرجل الطيب .

٨ ـــ رسالة عن طريق الجو البارد نهارا :

أوتوا فى يوم لا يُنسى .

عزيزى الأخ عبد الله .

بعد التحية . وصلتنى الرسالة . لا أستطيع إرسال نقود الآن . لا شىء يتبقى من الدولارات المجنونة . الحياة هنا صراع ونار ، لكنى تأقلمت ،

أصبحت مربوطا بالعجلة اللعينة . البيت بيتك فافعل ما تشاء . سلامى إلى أبنائك الذين لا أعرفهم . تحياتى للجميع وإلى لقاء .

المخلص

المهندس مصطفى المنصورى

٩ — فى انتظار الذى لن يأتى :

أصبح نصف البيت المرمم — المرهون — غاية فى الزخرفة والزركشة . الباب مفتوح ولكن بلا حركة ، فالعمال قد توقفوا عن العمل . الجزء المهدد بالسقوط والهدم ما زال على حاله والشرخ يتسع . سأل عنه عباس ، الذى أخذ خمسة جنيهات كاملة نظير ما فعل من معروف، فقال بحدة :

— هل تظن أن الحاج سامى يترك شغله من أجلك .؟ إنه رجل أعمال ، عنده تجارة وشغل فى أكثر من بلد ، اصبرْ حتى يأتى ..!!

— الصبر قد يفلق الجدار .

بقى وحده فى حجرة المدرسين ، يحاول أن يصحح كراسات التطبيق . تعجب فى نفسه : الأولاد يكتبون موضوعات إنشاء لا بأس بها ، لكن التطبيق ملىء بالأخطاء مع أنه يشرح لهم القواعد .؟ نظر إلى حائط الحجرة .. نتيجة الحائط لم يعد بها ورقة .. أى ورقة . لم يستطع أن يتذكر تاريخ اليوم . كل ما يشغله هو أن يعود الحاج سامى قبل أن يسقط الجدار .

١٠ ـــ نفيسة تموت من الهمّ :

نفيسة زوجة عبد الله ابنة عمه فهى أيضا من عائلة المنصورى ، والبيت عزيز عليها كما هو عزيز عليه . كانت تدرك بالفطرة والحس أن زوجها لا يسير فى سكة السلامة . إنه معذور ، ولكن الأعذار ـــ وهى بيد الله ـــ جعلت حال البيت لا يُتصوَّر ، بعد أن سقط الجدار المشروخ الذى كان يستر دورة المياه وحجرة الكرار . أصبحت الواجهة المزركشة علامة زائفة على ما هم فيه من ضياع ووقف حال . ذاب الحاج سامى كما يذوب فص ملح فى بحر كبير . عبد الله انتقل الشرخ من الجدار إلى رأسه . لا فائدة من الكلام معه . كان عبد الله حزينا من أجل البيت ، لكنها أمست حزينة من أجل البيت ومن أجل الزوج المشروخ . لم يسمع الكلام وركب رأسه ، وهذه عاقبة من لا يعجبه إلا رأسه .. يغرق ويغرق كل من معه . لا فائدة من الكلام بعد أن نفذ السهم . أعدت للعائلة طعام العشاء ، ونامتْ غير راغبة فى الطعام أو الكلام . فى الصباح وجدها عبد الله جثة هامدة .

١١ ـــ البقاء لله .. لكن الدنيا تمشى :

أخى عبد الله المنصورى المحترم .

التحية لكم من بلاد الله الطاهرة ، والسلام على روح المرحومة الأخت نفيسة . اصبرْ يا أخى على ما أصابك . كلنا أموات أولاد أموات . اعذرنى

يا أخي على عدم الحضور . زوجي الحاج سالم لا يستطيع أخذ إجازات . أنت رجل العائلة الآن فشد حيلك . الكل قد تنازل لك عن حقه فى البيت . سالم يعرف أنك فى أزمة ، وهو ما زال على استعداد لشراء البيت بالسعر الذى تحدده ، وسوف يرسله فى شيك تلغراف حتى تحل كل مشاكلك . نحن فى انتظار ما ترى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أختك العزيزة

الحاجة فاطمة رمضان المنصورى

مكة المكرمة ص . ب ٤٤٤٤

١٢ ــ ماذا تفيد المظلة بعد سقوط المطر ؟

أرسل حامد الذى يعمل صحفيا فى « أبو ظبى » مبلغ ألف جنيه لأخيه عبد الله حتى يدبر حاله بعد وفاة زوجته . لكن عبد الله لم يعد يحس للحياة طعما بعد رحيل نفيسة المفاجئ ، فالزوجة شيء عزيز فى الحياة .. قد تكون أعز من الوالد والولد إذا ما كانت صالحة مثل نفيسة ، التى كانت السلوى فى الحزن والهم ، ومصدر السعادة والأنس فى ليال يغيب فيها القمر . لم يعد بمستطيع أن يعود للسرير وحده ، صار ينام على كنبة فى حجرة المسافرين . الحياة بدون أليف قبر لا يطاق يا نفيسة . ! تحسس الألف جنيه فى جيبه ، كانت عديمة الجدوى مثل ورق الجرائد الذى جاءت منه . شعر أنه يشم هواء نقيا حين أخبره عباس بأن الحاج سامى قد عاد من رحلته التجارية الطويلة .

١٣ ـ القانون لا يحمى التعساء :

ماتت البسمة الشاحبة على فم عبد الله حين رفض الحاج سامى أن يأخذ منه النقود ، فى البداية كان يظنها شهامة منه ، لكن الرجل أخبره أن موعد الرهن قد انتهى .. وبناء عليه .. بناء على أنه لم يرد الدين فى موعده ، فقد صار البيت .. البيت الآن .. ملكًا له .

ـ مستحيل .. هذا كذب .. نصب .. احتيال ، بيت عائلة المنصورى .

ـ أصبح الآن ملكى .. بالقانون يا أستاذ عبد الله .

ـ يا ظالم .. يا مفترى ، خرب الله بيتك .

ـ تذكر أنك الآن فى بيتى بالفعل .

هجم على الرجل يريد أن يخنقه . يموت أو يميته .. سيّان . خلصه عباس وأنصار الحاج سامى وهم كثيرون من قبضة الرجل الحديدية . رموه كما ترمى الليمونة بعد عصرها إلى خارج البيت .

١٤ ـ وضاع البيتُ يا نفيسة :

صار قبر نفيسة هو المكان المفضّل لعبد الله . سامحينى يا أختى .. لم لا أموت مثلك ؟ ليتنى سمعت كلامك ، حصاد الوهم هو ما أجنيه الآن من انفرادى باتخاذ القرار . إخوتى هم السبب . ليت يدى ـ يد القط ـ قُطعت قبل أن توقع على الكمبيالات اللعينة .

نظر عوض إلى أخيه فى صمته الثقيل . هدَّ الهم حيلك يا عبد الله . كبير عائلة المنصورى شاخ وهرم . أصبح لا يعى ما يقول أو يفعل . نظر الأبناء إلى أبيهم فى صمته وهو جالس فوق الأنقاض . كان فى عالم وحده لا يسمع ولا يرد .. وربما لا يرى . بعد لحظات صمت قد تطول أو تقصر يردد فى حزن اسم نفيسة . تخيل شربات زوجة عوض تضحك ساخرة وقد ظهر صدرها الممتلئ شحما ولحما ، بينما نفيسة قد لبست ثوبا أسود ولفت رأسها بطرحة سوداء .

١٥ ــ لحظة التنوير المظلمة :

جاء مدرسو مدرسة مكارم الأخلاق الابتدائية المشتركة ليروا زميلهم الأستاذ عبد الله ، حتى عباس جاء معهم ، لكن الرجل فى عالم آخر كان . سبحان من يُغيِّر ولا يتغير .. هكذا قال الشيخ جاد .

لعن عباس فى سره الحاج سامى الغربلوى واليوم الذى عرف فيه عبد الله المنصورى به . لم يكن يظن أن الأفاعى يمكن أن تنشر الخراب بهذه السرعة .

نظر عوض إلى أخيه فى صمت وقد مرت فى خاطره صور باهتة لإخوة مغتربين .. وأسرة ممزقة . أحس أن الشرخ أخذ يتسع .. ويمتد .

انتفض الأولاد والعم على حركة مباغتة من الوالد عبد الله المنصورى . كان يجرى حافيا وهو يتعثر فى جلبابه . وقف مكان الشرخ . نظر بعينين ضعيفتين حوله فى كل اتجاه . جلس القرفصاء وأخذ

يحمل تراب الجدار ، ويعفر نفسه من الرأس إلى القدم . حاول الأبناء — وعيونهم غرقى بالدموع — أن يوقفوه عن الحركة ، لكنه ما لبث أن سقط بينهم .. فى نفس المكان الذى كان يوجد به الشرخ . حاولوا أن يحملوه .. نظر وهو مطروح فى الأرض،كأنما يبحث فى السماء عن شىء بعيد .
تخيل الجد رمضان يقول فى عتاب :
— سامحك الله يا عبد الله .

جاءت ابنته الصغرى وجذبت الثوب حتى توارى موضع العفّة ، وتغطى الأجزاء العريانة من جثة العزيز الراحل(١) .

---

(١) كتبت فى مارس ١٩٨٣ ، ونشرت فى مجلة « الدوحة » العدد (٩٦) صفر ١٤٠٤ هـ ، ديسمبر ١٩٨٣ م ، وجريدة « الشرق » — قطر فى ١٤ إبريل ١٩٨٨ .

مواقف مجهولة
من سيرة صالح أبو عيسى

يقول الراوى المفلوق فؤاده من فعل الأنذال ومن تغيُّر الأحوال :

« يا سادة يا كرام صلوا على المصطفى خير الأنام ، أروى لكم مواقف مجهولة من حياة راعى الأغنام الطيب صالح أبو عيسى الشهير بصالح أبو زعبوطين ، وصالح هذا يا سادة قد يكون أخى أو أخاك .. وقد يكون أنا أو أنت ، فسبحان علاَّم الغيوب ومفرّج الكروب .

عاد صالح إلى داره فى أول المساء بعد أن ترك الغنم التى يرعاها عند صاحبها ، ودخل من الباب المفتوح فقابلته رائحة محشى الكرنب ، فقال فى نفسه : منيرة زوجتى امرأة عاقلة ، فمحشى الكرنب يُدفىء البطن ، ويقوى العظم فى هذه الليالى الباردة .. ليالى طوبة ، كما أن العروق والرأس يمكن أن توضع فى ماء مملح وتصنع مخللا يفتح النفس . قادته قدماه إلى مصدر الرائحة ، وجد الحلة على الكانون فى حجرة الفرن . الحلة يصعدُ منها البخار ، لكن المحشى لم ينضج . نادى على الأولاد والزوجة ، صوته ضاع مع بخار المحشى . بعد قليل جاءت منيرة .

ـــ أين كنتِ يا امرأة .؟

صاحت فيه معلنة استنكارها ، فهو حين لا يجدها يفعل مثل الصغار لا يستقر ولا يهدأ . يا وكستك السودة يا منيرة . لو كنت رجلا مثل الآخرين فماذا كنت تصنع يا صالح يا أبو زعبوطين ؟ يا رجل غور

بلا وجع قلب . كنت يا روحى عند سكينة أم على ، زوجها عاد بالسلامة من السعودية .. شاء الله يا أهل البيت . رجب زوجها الذى كان عرة الرجال يا صالح ، داره الآن مبنية بالطوب الأحمر ، وغناء المسجل لا ينقطع فيها ليل نهار ، وأولاده صلاة النبى عليهم يلبسون ملابس نايلون فى نايلون .

تبادلا نظرات صامتة . العيون أحيانا تقول ما لا يقدر اللسان على نطقه ، حاول أن يتربع على المصطبة فآلمته ركبته اليمنى من كثرة المشى وراء الغنم . احتار صالح والحيرة مرة . منيرة عندها حق فالرحلة إلى بلاد البترول صارت سهلة مثل السفر إلى سوق المركز . العاطل والباطل يغيب شهورا ، يأتى بعدها محملا بالأموال والهدايا . لو أنت شاطر سافر . أسافر كيف ؟ الغنم .. الأولاد .. أنتِ .. كل هذا كيف .. كيف ؟ هل يعجبك يا منيرة الولد عامر أبو عميرة الذى سافر ثانى يوم زواجه ، وترك زوجته يا حبة عين أمها ، والموكوس عبده عبّود الذى ذهب وترك أباه الذى جاء به من سلسلة ظهره ـــ مشلولا يا ولداه ، والمسطول ناجى أبو النجا الذى ترك أرضه لأولاده الصغار وزوجته الغندورة فبار نصف الأرض وأكلت الدودة النصف الباقى .

وضعت منيرة أمام زوجها طاسة المحشى الساخن وبصلة حمراء تفتح نفسه ، لكن التعب والفكر ملآ بطنه ونفخا رأسه . نكد الله عليك يا منيرة كما نكدت علىَّ . سار متجها إلى المسجد فى الحوارى الضيقة ، لكى يصلى العشاء ويغسل رأسه من الفكر والحيرة . أثناء السرى رأى البنايات

الجديدة وأضواء الكهرباء الملونة تطل فوق الأبواب . هذه الدور كلها بلا رجال يا منيرة ، الرجال رحلوا وتركوا الدار والغيط وورشة النجارة وماكينة الطحين ، حتى الولد يمانى الحلاق .. أخذ الحقيبة وهاجر .!! أكيد منيرة عندها حق ، الأولاد الخمسة كبروا ، رعْىُ الغنم والعمل باليومية لا يسد بطونهم ولا يكفى لإصلاح الدار القديمة . الغلاء جعلهم يبيعون البيض والفراخ والبط،ويشترون لحما مثلجا من الجمعية ، أفتى عبد الحى الجزار أن أكلها حرام ، فهى مذبوحة فى بلاد بعيدة ليس فيها إسلام ولا أحد يوحّد الله ، لكن أحدا لم يستمع إلى كلامه .

قادته قدماه — دون أن يدرى — إلى قبر أمه ، أحس أنها تُعاتبه : هكذا يا صالح تنسيك منيرة أمك .. حتى الأعياد يا حبيبى لا تزورنى فيها .؟ كيف تنسى أمك ؟ هل تظن يا ولدى أننا نحن الأموات لا نشتاق إليكم يا أحبابنا ؟ إن كل واحد منا يفاخر جاره بزواره ، لكن من يقرأ ومن يستمع.؟! لا تحزنْ يا صالح ولا تسْمع كلام منيرة .. إياك .. فمن خرج من داره يتقل مقداره !

— من صالح أبو زعبوطين .. ما الذى أخرجك فى هذا البرد المظلم .؟

— غُور يا خفير الكلب جاءتك مصيبة .

اشتد غيظ صالح أبو عيسى حين ناداه الخفير : صالح أبو زعبوطين ، ولهذه التسمية قصة عجيبة ، يجب أن تعرفوها فهى جزء من المواقف المجهولة فى حياة صالح .. وبالطبع أنا حريص على ذكر المجهول من سيرته ، لأن أحداث حياته المألوفة معروفة عند أبناء قريتنا ، وهذه الحكاية مكتوبة

لهم .. فى المقام الأول .

وقد حدثنى صالح بنفسه عن سر ذلك فقال : منذ عشرين سنة وربما أكثر — والله وحده أعلم بعدد السنين والحساب — وفى يوم من أيام أمشير حسبت أن الجو سيكون دافئا ، فصحبت مع الغنم شاة صغيرة عمرها سبعة أيام ، لأن فرحتى بميلاد شاة أو خروف لا يقل سعادة عن فرحتى بمولد طفل من منيرة . وفجأة نزل المطر بغزارة فأخذت غبيط الحمار وألبسته للشاة ، وحملتها على صدرى . أبصرنى محمد الأشرم وبصرُه حاد — كما تعلم — ونظره حاسد ، وأخذ يضحك .. صالح برأسيْن .. وزعبوطين .

ذهبتُ أسأل أهل قريتنا وأنا أفتِّش فى أخبار صالح عن معنى الزعبوط ؟ فقال بعضهم إنه غطاء للرأس يكون واسعاً فى البداية ويضيق بشكل حاد فى النهاية مثل طرطور شكوكو . ولكن بعض الراسخين فى العلم قالوا إنه رداء من صوف الغنم يغطى لابسه من رأسه إلى ساسه ، مثل العباءة المغربية .

عاد صالح إلى داره والوسواس الخناس يلعب بفؤاده ، كما تلعب الريح بمركب فى يوم عاصف . وجد منيرة نائمة على وجهها وقد كشفت عن ساقيْها ، كأنما تقول له : هيْتَ لك .!! فحل التكة الصوفية وتوكل على الله يُؤتى حرثه . وصالح هذا يا سادة يا كرام له عادة أو فيه داء ، أشك أنه أصاب أحدا من رعاة الغنم قبله ، وذلك أنه لا يمارس الجنس رغبة فيه أو رهبة من منيرة ، ولكن لكى يقتل القلق ويسكت الوساوس . وقد

قرأت ما كتب « فرويد » عن الجنس وعقده ، وأسفت لأن علماء النفس أو الجنس لم يستفيدوا من خبرة صالح السرية .

بدأ الرجل يكشف موضع العفة ، ويعدل من ساقى المرأة ، فأحست منيرة بحركته المباغتة فسحبت حمل الصوف وغطت جسدها قائلة فى ازدراء : استح يا رجل أنا تعبانة .!!

من أى شىء تكون هذه الخرقاء تعبانة .؟ آكلة شاربة .. لكنها لا تشكر الله . نظرت إليه فى شماتة .. لو كنت رجلاً لجعلتنى سيدة بحق وحقيق مثل سكينة أم على . هات لى قميص وزجاجة عطر وأحمر وأبيض ، وأنا أقول لك شبيك لبيك . أعطته ظهرها ونامت أو تناومت ، سبحان من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . أحس صالح أنه سقط من عينى زوجته ، وأن المرأة — التى هى امرأته وحده — تسقطه من حسابها . لحظة مرة شعر فيها بالإحباط فى لحظة رغبة ، فصاح مناجيا ربه :

— يا رب يا متجلى ارحم ذلى ..!!

***

دارت أيام وأيام يا سادة يا كرام ، وصالح على حاله من الغم حتى أصبح مع الغنم كأنه واحدة منها . فكلما سار فى شارع ورأى البنايات الجديدة أو ولدا من أولاد المسافرين يلبس الملابس المستوردة ، ويحمل الراديو أو المسجل فى يد ، والساعة التى تنير الظلام فى يد أخرى ، عاودته غصة هم مكتوم . منيرة — سامحها الله — لا ترحم ولا تترك زوجها المسكين يستريح . لكن الله جلت حكمته استجاب لدعاء صالح ،

وأرسل المنقذ من الآلام .. الأستاذ سيد فهيم قريبه الذى يعمل بالقاهرة ، ويحضر فى بعض المواسم ، لكى يتباهى بما يلبس من ملابس مستوردة .. محزقة . قال له وعيناه تبحلقان خلف زجاج النظارة :

— أول ما تشطح تنطح يا صالح .

أفهمه قريبه المستنير أن الرحلة إلى الخارج صعبة ، ولا سيما — وهى كلمة سمعها لأول مرة .. كما ذكر لى بعد ذلك — أنه أمّى ، وقال إنه سوف يدبّر له وظيفة فراش فى مدرسة الإصلاح الخاصة التى يعمل بها سكرتيرا .

صبر صالح ونال ، وأصبح فرّاشا فى المدرسة .. وصار من سكان القاهرة . فى القرية الذين يلبسون ملابس مستوردة عددهم قليل ، لكن كثيرا من التلاميذ هنا يلبسون هذه الملابس بدرجة جعلته يحدث نفسه : هل أنا فى مصر أم فى بلاد برة ؟ منيرة كان عندها حق .. فمن يتوكل على الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وهو الآن يقبض ثلاثين جنيها .. ثلاث ورقات مجمدة .. أما مصروفه فيأتى بفضل الله من بعض الأولاد الطيبين ومن الأستاذ سيد وزبائنه .

حجرة الأستاذ سيد خلية نحل ، وهو يكلم الجميع فى نفس واحد . سبحان الله الأستاذ سيد هذا رجل ، والرجال قليلون ، إنه يضحك لهذا ويكشر لذاك ويستمع لواحد ويكلم الآخر ، ويشرب قهوة وسيجارة ، ويعد نقودا ، ويفتح الخزينة ، ويكتب بالقلم الأسود والقلم الأزرق والقلم الأحمر . الكل يعمل له حسابا وينهى الحوار معه بقوله :

ـــ ما تراه يا أستاذ سيد ، أنت كلك نظر ، وليس لنا بركة إلا أنت .

سيد هذا ولد سره باتع .. ترى فى أى المدارس تعلم كل تلك الخبرة ؟ أحس بفجيعة حين عرف من بعض المدرسين أن قريبه الذى يعمل له الجميع ألف حساب مجرد « ساقط توجيهى » . وقد سمع هذه الشهادة من أكثر من واحد ، إلا أنه لم يشأ أن يصدقها ، كبر قريبه فى عينيه أكثر عندما كان يذهب كل يوم جمعة لكى ينظف له الشقة ويحضر لزوجته الطلبات من السوق . كانت شقة قريبه تطفح بالعز والنعيم ، وفيها أكثر مما فى بيوت المسافرين إلى بلاد البترول . يا سبحان الله ، المنحوس منحوس فى أى مكان . لقد هرب من عالم المسافرين فى القرية فوجده فى المدينة وفى بيت قريبه . ورغم أنه اعتاد عنده أكل هبر اللحم المحمر والفاكهة المثلجة إلا أنه كان يتضايق من أولاد قريبه الذين لا يمصون العظم ولا يقشرون الفاكهة . كان الغيظ العظيم على زوجته المرتوية التى تتحرك فى الشقة بقميص من النايلون الأحمر . تأمل شعيرات سوداء مثل الزغب تبدو تحت إبطيها ، وهو يتساءل : كيف جاء كل هذا العز للأستاذ سيد وهو لم يشّرق ولم يغرّب .؟!

قعد متربعا فى آخر النهار على السجادة وسيد أفندى وزوجته وبعض الأولاد الذين لم يذهبوا إلى النادى يجلسون على أنتريه مودرن والتليفزيون الملون ينقل مباراة كرة القدم ، كلما جاء « جون » علق قريبه قائلا :

ـــ يا سلام على اللعب .!!

عاد صالح إلى حجرة البواب بالمدرسة بعد يوم كله تعب ومتعة

وحسرة . إيه يا منيرة .. ماذا تفيد ثلاثون جنيها فى هذا الزمن المقلوب ؟ الفقر فى المدينة كما فى القرية يكون . لا بد من الرحلة إلى البلاد البعيدة . أحس رغبة فى التبول . أضاء فناء المدرسة والدورة،حتى يقضى على الشعور بالوحدة والوحشة . تأمل بوله فى الضوء لأول مرة ، فأحس أن بوله عكر .. وأنه يعانى آلاما لا يعرف لها سببا . عاد ثقيل الخطى كأنما يحمل صليب الآلام .. وكلما اقترب من الحجرة شعر أنه يتضاءل .. يتضاءل . بين اليقظة والنوم رأى أطفاله يبكون وأمه تقول : كيف تُعمّر الخراب وتخرب العمار .!؟ قام من النوم خائفا يترقب ، وهو يقول :

ـــ يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف .. !!

حاولت يا سادة يا كرام أن أعرف سر أحزان صالح أبو عيسى فى هذه المرحلة ، فكان كثيرا ما يصمت .

ـــ مثلك كان ينبغى أن يشكر الله على ما آتاه .

ـــ سأقول لك سرا .. وربما كان خاصا بى وحدى .

استبشرت خيرا وحمدت الله على أن فك عقال لسانه ، فقد أخبرنى بما أدهشنى ـــ وإن كان قد زاد من عجبى ببطل حكايتى :

هل تظن أن الأعور خير من الأعمى ؟ فى القرية كنتُ أحس أنى سعيد .. سعيد جدا ، فأنا سيد الغنم .. أهش على هذه وألاعب تلك .. أشرب اللبن .. وأجز الصوف . كنت فى مملكة أنا وحدى السيد فيها ، وإنْ كانت ليست ملكًا لى . الحرمان فى المدينة أقل .. لكن الحرمان لا يولد الأحزان .. وإنما الشعور به والمعاناة منه .

أخذ صالح يثرثر بكلام كثير .. وهنا بدأت أعرف أنه بدأ يعانى آلاما حضارية ، فقد دخل المدينة بفقره المدقع ، وقابلته المدينة بتطلعاتها المنفتحة إلى ما لا نهاية ..!!

بدأ صالح يعانى أكثر وأكثر ، تمنيت لو أن العالم الأنثروبولوجى « ليفى شتراوس » قد عرفه قبل أن يؤلف كتابه « النيء والمطهو » حتى يأخذه شاهدا على أن البيئة تتحكم فى الفرد وتحكمه ، فلا يمكن أن نقطف من شجرة التين عنبا ، ولا أن نأخذ من نهر الماء نبيذا . !!

عاودت صالح أبو زعبوطين خواطر أمل مكبوت ، وأصر على أن يسير فى الطريق حتى النهاية ، فالموت غنًى أفضل من الحياة فقرا. وفى عصر يوم دخل على الشيخ عبد القادر مدرس اللغة العربية ــ الذى جلس بعد اليوم الدراسى يصحح الكراسات ، حتى يحين موعد الانطلاق إلى الدروس الخصوصية ــ فرقّ لحاله وأخرج نصف جنيه وأعطاه له ، لكن صالح قال له فى ثقة : لا أريد مسكّنات ولكنى أريد حلا للمشكلة .

قال الشيخ الذى لم تفارقه رصانة الأزهريين ، وهو محشور فى بدلة مثل كيس القطن : عندك حق يا صالح .. لقد تغير الزمان والرجال .. أين الأيام التى كان الفقير يدخل فيها على الغنى ، ويقول فى خشونة وغلظة :

أتذكرُ إذْ لحافُك جلــدُ شاةٍ ... وإذ نعلاك من جلدِ البعيــرِ ؟
فسبحانَ الذى أعطـاك مُلكًــا ... وعلمك الجلوسَ على السريـرِ
فجدْ لى يـا ابـن نـاقصةٍ بمال ... فـإنى قـد عــزمتُ على المسير
سأرحـلُ عـن بـلادٍ أنتَ فيها ... ولو جـار الزمـانُ على الفــقير

فيعطيه الغنى فى حلم وكرم ما يريد قائلا : إنْ جاورتنا فمرحبًا بالإقامة ، وإن جاوزتنا فمصحوبًا بالسلامة . لقد تغير كل شىء يا صالح وإن شاء الله سوف أساعدك فى استخراج جواز السفر ، فوالد تلميذ عندى يعمل فى مصلحة الجوازات .

***

لم تسعْ منيرة الفرحة ، وقد رأت الدفتر الأخضر فى جيب صديرى زوجها . ذبحت له فرخة ، وقالت : كلها لك يا سيدى وتاج رأسى . دخلت الحمّام واغتسلت بصابونة معطرة . وسرحت شعرها دون أن تضع عليه جازا ، كما تفعل أحيانا بعد الاستحمام ، ولم تنتظر هذه المرة حتى يطلب منها خلع ملابسها ، وإنما عريانة كما ولدتها أمها تكون . ظل يكلم جسدها فى عطف ومودة ، وشبح زوجة سيد أفندى بقميصها الأحمر لا يفارق مخيلته ، وهو يتأمل تحت إبطيها .

كان الرحيل يوم عيد ، حتى أطفاله الأربعة كانوا فخورين بأبيهم الذى سوف يركب الطائرة ، ويسافر بعيدا بعيدا .. لكنه سوف يعود سالما بإذن الله كما قالت الأم ومعه كل ما يشتهون . ابنته الكبرى كانت مروعة لحظة الرحيل ، كأنها حمامة وقعت فى شرَك صقر عجوز .

يابـا أنـا شايفـه عيـنك على السفـر هتـزول
الغربـه تُربـه يابـا ، تِقـل الأصول وتـزول
تفنـى الخلايـق ، وكل العبـاد هتـزول

قطعت نظراتها الباكية شغاف قلبه ، لكن ما قدره الله يكون ، ولله فى

خلقه شئون ، فلو تردد أبو زيد الهلالى لحظة لما خرج من ديار بنى هلال ، ولا دخلت تونس وبلاد البربر فى حمى الإسلام ، ولا تكلم أهلها لغة النبى عليه الصلاة والسلام .

لا أخفيكم يا سادة يا كرام أن فرحتى قد زادت ببطل قصتى الهمام ، فالشجاعة أن تكون ذا رأى فى صلابة الحسام .

وقد حدثنى صالح نفسه — فيما دار بينه وبينى من أحاديث خاصة — أنه قد عزم منذ الليلة على أن يبدأ صفحة جديدة . صالح أبو زعبوطين مات إلى الأبد ، ولن يعرفه أحد فى بلاد الغربة ، ولن ينطقه واحد من أهل القرية ، لأنه سوف يصبح فى عداد الأغنياء . فجعلت أنفيه وأثبته ، وأنكره كأنى لا أعرفه .. !!

***

ورد فى قول مأثور يا سادة يا كرام أن الطاعون نزل بمدينة يعيش فيها أحد السلف الصالح ، فحمل متاعه وهمَّ بأن يخرج منها ، فقيل له كيف تهرب من قضاء الله ؟ فقال : أهربُ من قضاء الله إلى قدره . وهذا ما حدث لصالح الذى غابت أخباره عن زوجته وأولاده ،كأنما ابتلعه حوت وغاص فى أعماق اليمّ . بعد ستة شهور كوامل من الانتظار المخيف ، وردت رسالة من العزيز الغالى ، يقول كاتبها على لسانه :

زوجتنا العزيزة السيدة منيرة أم طلبة .

التحياتُ الطيبات لك ، والسلام المعطر بالورد والنعناع للأولاد فلذات الأكباد ، وسلام الله ورحمته وبركاته على جميع الأهل والجيران ،

كل واحدٍ باسمه ورسمه خوفا من الخطأ والنسيان .

أعرفك يا زوجتى المصونة والجوهرة المكنونة أنى وصلت مدينة العين بأبو ظبى ، والناس هنا مسلمون وموحّدون بالله مثلنا . وقد وجدت العمل بعد شهر من سلامة الوصول بفضل الله الذى لا ينسى عباده المخلصين. وأعمل فى شغلة المعمار حامل طوب ومونة . كنت أتمنى أن أعمل فى وظيفة وأجلس على مكتب مثل الأستاذ سيد ، لكن أمثالى لا مؤهل لهم سوى العافية ، أدامها الله علينا وحفظها من كل سوء . الشغل متعب من شروق الشمس إلى مغربها ، والجو — كما يقولون هنا — حار وايد .

مرسل لك مبلغ ثلاثمائة جنيه بالتمام والكمال ، اصرفى وتصرفى بحكمة . اهتمّى بالأولاد كثيرا جدا ، واوعى تزعلى البنت لأنها أصبحت عروسة ، زورى قبر والدتى واطلبى لها الرحمة والغفران .

لا أعرف متى سأعود فكل شىء بأمره،وسبحان علام الغيوب . اطلبى من الشيخ باز أن يحضر لقراءة القرآن كل صباح ، فالقرآن يطرح البركة فى المكان،ويطرد شياطين الإنس والجان .

صلى وادعى الله يا منيرة أن يحفظ لنا العافية ، التى هى غاية القصد والمراد من ربّ العباد .

ألف تحية وكفاية كلام والسلام ختام .

من طرف العبد الفقير إلى ربه .. زوجك

صالح أبو عيسى

حدثنى صالح فيما بعد أنه كذب على زوجته فى الخطاب ، فقد ظل

ثلاثة شهور كاملة يبحث عن عمل، بلدة تستقبله وأخرى تطرده . بات ليالى كثيرة فى العراء بلا فرش ولا غطاء بغير زاد ولا مال ، ولولا بعض العطايا والهبات من أهل الخير لمات ، وما عرف الذباب الأزرق له مكانا . فى هذه الليالى الطويلة كان لا يفارقه طيف منيرة تقول له : تحمل كله من أجل العيال يا صالح . كما كانت صورة أمه تظهر أمامه دائما باكية . سأل نفسه هل يعرف الموتى قسوة ما يعانيه أحبابهم فى الحياة الدنيا ، وهل طلوع الروح يمنع الوصال بين عالم الحياة وعالم الموت ؟ لا يستطيع أن ينسى رؤيا مثل الكابوس ، فقد رأى فيما يرى النائم أمه مرتدية ملابس ممزقة ، وقد حملت مقطفا من الروث ، وتسير فى أرض موحلة بالزفت ، تسمَّرتْ قدماها ، وكلما حاولت أن ترفعهما تخرج الواحدة دامية وقد التصق لحمها بالزفت .. فأخذت تصيح : عينى عليك وعلَّى .. يا عزيز عينى .. عينى يا صالح .. عينى يا عزيز عينى .. !!

استيقظ من الرؤيا فزعا،كأنما يتخبطه الشيطان من المسِّ . ظـل الكابوس محفورا فى وعيه فأل شؤم،كلما صادف أهوال البحث عن عمل فى بلاد لا يعرف فيها أحدا ولا يملك شيئا . أمر خُفى عليه فى هذا الحلم ، فسَّره بعض الزملاء له .. ورأوا فيه دليل كرامة لا يظهر إلا لمن كشف الله عنه الحجاب ، فقد تحققت له حالة قريبة من حالة الاتصال الروحى التى يسميها علماء النفس « التلباثى » ، وهى شبيهة بما حدث بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسارية ، حين نادى عليه قائلا : « يا ساريه .. الجبل » . فكل ما شاهده صالح قد تحقق — كما قال له فيما بعد رفيق

باكستانى ـــ فآلام الأم فى الحلم هى مكابداته فى بلده وفى أبو ظبى من أجل البحث عن عمل يكفيه هو وأسرته ، والعين التى نادت عليها أمه هى المدينة التى قُدّر له أن يعمل فيها ، لذلك سماه الزملاء صالح المبارك .. وصالح المبروك .. وصالح العينى نسبة إلى مدينة العين . وصدق صالح ما قيل فصار يكثر من الصلاة فى أوقاتها ومن تلاوة القرآن ، وترديد بعض الأحاديث التى حفظها عن الشيخ عمران من خُطب الجُمع والعيدَيْن .

أحس صالح برضى وقناعة بعد أن جاءه خطاب بعلم وصول المال لمنيرة ، وأخذ يشكر الله فى السر والعلن،فقد أطعمه بعد جوع وأمنه بعد خوف . وكان لا يشغله عن ذكر الله شاغل من شواغل الدنيا الكثيرة . بعد العشاء طعاما وصلاة كانوا يجلسون جميعا ، كل واحد يجترُّ همَّه وطموحه إلا صالح ، الذى كان يعيش بينهم كأنه مجذوب يسمع ولا يتكلم .. وكلما سأله زميل فى أمر من الأمور،رد عليه فى ثقة المؤمن « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » . لم يعد أحد يناديه باسمه ، فقد صار عند البعض الشيخ صالح .. وعند الآخرين .. الحاج صالح ـــ رغم أنهم يعلمون أنه لم يحج بيت الله الحرام .

فى ليلة لا تنسى انتهى مجلس الأكل والصلاة والسمر ، وانحشر كل جماعة فى حجرة،يرصون أنفسهم فيها مثل علبة السردين . الجميع فواعلية ، لكن التعب رغم قسوته كان لا يقضى على قلق الكثيرين ، ولا على خوفهم على الأهل فى بلادهم البعيدة .

فى هذه الليلة تلا الشيخ صالح « ورد » ما قبل النوم ، واستعاذ بربه من

الهم والحزن والعجز والكسل ، واستغفره من الخطايا والآثام ، ونام مرددا « الحمد لله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » .. لكنه ظل عصىَّ النوم .. ومرت أمام خواطره صورة كل من يعرف فى برِّ مصر من الموتى والأحياء ، مرت صورة الجميع بسلام آمنة إلا صورة أمه المحزونة دوْما .. كأنما تحمل همَّ السنين . وظلت تلومه قائلة : هانت عليك بلادك ، هكذا يا صالح تخرِّبُ العمار، وتعمِّـر الخراب .؟!

أحس به رفيق صعيدى فقال : مالك يا شيخ صالح ؟ خذ سيجارة ووحِّد الله . أمسى صالح الذى ينصح الكل فى حاجة إلى من ينصحه . أحس وهو يسحب نفسا عميقا من السيجارة ويطرده، أنه مضيَّع مثل الدخان . حين رمى العقب من يده أحس أنه هو والعقب سيّان . نظر إلى بقية الأعقاب التى ملأت الحجرة فانهالت دموع ساخنة على خديه ، خرج إلى الخلاء ليفك حصرته من البول . وحتى لا يشعر ببكائه أحد ، أخذ يعاتب زوجته فى سرِّه ! سامحك الله يا منيرة ، صالح صار الآن عُقب سيجارة ، من أجل الحلم بدار جديدة وملابس نايلون وقميص أحمر .

وقد ذكر صالح فيما ذكر أنه لم يعانِ طوال سنواته الخمسين من أية علة من العلل ، لكنه فى الأيام الأخيرة بدأ يعانى آلاما لا يعرف لها مصدرا ، فكل أجزاء الجسد توجعه .. ورغم الصلاة والمناجاة إلا أن نفسه أيضا كانت عليلة . الصراع الخفى الذى مزق الرجل أن دور الشيخ جعله يبدو فى صورة الزاهد الصابر الذى لا يشكو .. ولا يتحدث ، بينما كانت الآلام

فى داخله تفيض أنهارا تسبح فيها خيول الخوف والقلق والمرض . !!

ازدادت حالة صالح النفسية والجسدية سوءًا وأصبح لا يكلم الناس إلا رمزا ، وقد ظن كثير من زملائه أنه وصل إلى مرتبة اليقين الحقة ، وأن ما نزل عليه من سكينة ورضى جعله يبتعد عن التفكير فيما يفكر فيه غامة الناس : وقد فسَّر ذلك واحد من خبراء الصعيد فقال :

ــ إن صالح لا بد أن يكون قد أخذ العهد قبل أن يأتى على واحد من أولياء الله الصالحين ، وراح يعدد كرامات أتباع سيدى عبد الرحيم القناوى وأحوال من يأخذون العهد عليه .

وهنا قال صالح لنفسه : لا شك أن رضاء العبد من رضاء الربّ ، فمن رضى عنه الله أرضى عنه خلقه ، وأحس أن الإيمان ينسيه كثيرا مما هو فيه من الآلام والأوجاع . ولكن الذى آلم صالح وأخافه فى أيامه الأخيرة أمران :

الأول : الإفراط فى التدخين خاصة قبيل النوم . عجيب أمر هذا الدخان. يبدو لمن يدمنه أن نفسه هى التى ستحترق إذا لم يحرق السيجارة .

والأمر الثانى : أن عافية صالح قد هُدَّتْ ، فشحب لونه وهزل جسده . الأخطر من هذا وهو ما لم يجرؤ على قوله لأحد حتى زوجته منيرة ، هذا الأمر هو أنه لم يعد قادرا على أن يتحكم فى بوْله كثيرا . وقد حيرته هذه الظاهرة أول العهد بها ، وكان ما أخافه منها ليس حال المرض ، فالأعمار كما يقال كلها بيد الله ، لكن ما أحزنه أنه لن يستطيع

أن يؤمَّ الناسَ فى الصلاة ، كما يفعل كثيرا مع أتباعه .

وقد احتار بعض مريديه فى تعليل ذلك ، فمنهم من ردَّها إلى المرض ، (خاصة وأن أخبار المرض يوميا ليست غريبة على تجمعاتهم ، فالغربة — كما قال لهم صالح نفسه ذات مرة — تلدُ من الأمراض مالا عين رأتْ ولا أذن سمعت) . كما ردها بعضهم إلى الحزن الذى يهدّ الجبال ويقصف الأعمار . ومنهم من قال إنه وصل إلى مرتبة الولىّ — مثل كافة أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم — ومنهم من رأى أن صالحا رجل طيب القلب ، وأن الله سبحانه رب قلوب ، والرجل بشهادة الجميع قلبه مثل اللبن الحليب .. وقد ساعد على عدم اهتزاز يقينهم فى أن صالحا ولى أو مجذوب على الأقل أنه لا يكذب ولا يتلون مع كبير أو صغير ، كما أنه لا يكف أثناء الصعود على الصقالة أو النزول منها عن ترديد آيات من القرآن الكريم أو ذكر أدعيته المأثورة طالبا العفو والمغفرة ، والعودة السالمة إلى الأهل والديار .

وقد سأله بعض الأصدقاء قائلا : مالك يا شيخ صالح هل أنت مريض ؟

فرد كأنما كان ينتظر السؤال :

— الحمد لله الذى لا يُحمد على مكروه سواه ، لست مريضا ولكنى رجل حزين .

— كيف ؟

— ظُنَّ خيرًا ولا تسأل عن السبب .!!

***

يوم يعود إلى القرية واحد من أبنائها النازحين المشردين يكون يوم عيد .

الشيخ حسن المطمطم البهلول ملأ الشوارع والحارات صياحا :

ـ الله حىّ .. الله حىّ .. صالح جىّ .. صالح جىّ .

انتظره الأصدقاء عند مدخل القرية .. وقريبا من البيت .

منيرة نظفت الدار وطبخت للقادم العزيز حلة محشى ورق عنب ، وذكر بط حتى تعوّضه عن أيام الحرمان . كل لحظة ترد إليها جارة تسأل عنه بودّ حتى لا تنساها فى الهدايا ، بل إن أبا منيرة نفسه جاء يطمئن على صهره ، وذكّرها بأن تحضر له سُلفة مائة جنيه إلى أن يأتى موسم القطن .

أول مرة تدخل الحقائب الملونة دار صالح،الذى جاء راكبا عربة « بيجو » من المطار حتى باب الدار . علت زغاريدُ منيرة وابنتها ، وكذا زغاريد الجارات والقريبات . امتلأت الدار الصغيرة بكثير من الأهل والأصدقاء جاءوا يستقبلون العزيز الذى غابَ حولين كاملين .

على غير ما كان يكون .. فقد ظل الجميع يطلبون منه أن يحدثهم عما فعل ورأى .. وأن يحكى لهم عن بطولاته وصولاته . أحس آلاما لا يعرف من أين تجىء .. فكل عضو فيه يشكو ويتوجع . أراد أن يبكى .. وأن يقبل التراب ، ولكنهم أخذوا يرددون ما ذكر غيره من القادمين من نوادر وحكايات عن الأجور العالية والأطعمة الفاخرة والمشروبات الكثيرة والفاكهة المتنوعة ، لدرجة أن بعضهم ذكر أنه ملَّ أكل التفاح واشتاق إلى الجميز . كما أخذوا يثرثرون عن الملابس والأدوات الكهربائية ، وصالح

يستمع كأنما هم الذين جاءوا من الخارج وليس هو .. وأخذ يقول فى نفسه : والله لو علموا ما أعلم لضحكوا قليلا ولبكوا كثيرا ... لكنهم قوم مسرفون .!!

سأله واحد فجأة :

ــ أكيد سوف ترجع يا صالح .

فرد بأسرع مما سُئل : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله . » خرجوا وهم يتهامسون بأن صالحا الساذج الذى كان بزعبوطيْن قد انتهى .. وهذا المعلم صالح أو الحاج صالح يتخابث ، ولا يريد أن يفصح عن نواياه خشية الحسد ، أو أن يطلب منه أحد سلفة أو مساعدة .

حدثنى صالح عن انطباعه السىء من هذه الحفاوة الكاذبة التى قوبل بها قائلا :

ــ تمنيت لو كان معى شمروخ طويل وضربتهم جميعا . هذا الصنف من البشر لا هم لهم إلا الفرجة على عباد الله . لا يحاولون أن يفعلوا شيئا .. كل بضاعتهم الكلام .. الكلام الذى لا يحمل معنى . آه لو كانـوا يعلمون ...

ــ يعلمون ماذا ؟

ــ أن الكنوز الحقيقية هنا على هذه الأرض ، وأن كل ما هو مستورد باطل وقبض الريح .

انفض السامر والسمّار ، وخلا العائد الحبيب إلى زوجته أم طلبة كما

كان يدعوها فى لحظات الأنس . أخرج للأولاد هداياهم ، وذهبوا إلى حجرتهم لابسين الملابس المستوردة ، وأصروا أن يناموا بها حتى يحسوا بالعز الجديد الذى تمنوه طويلا .

لبست منيرة قميص النايلون الأحمر ، وجلست بين يديه فى دلال ، وأخذت تتأمله فى مودة . لم يكن من السهل ألا تدرك ما ظهر على جسده من هزال وضعف . لكنها اللحظة : لحظة للفرحة ، وليست للبكاء . اقتربتْ منه واقترب منها ، وتهيأت له وتهيأ لها ، لكنه أحس برغبة جامحة فى أن يدخّن سيجارة . أخذ يمتص الدخان فى صمت وحسرة ، وهى تتأمله فى شوق ورغبة . عاودته آلام الغربة ومرارة الليالى السوداء . التصقت به أكثر .. وأكثر . أحس وهو يرمى العقب المشتعل فى أرض الغرفة أنه مُفرّغ من الداخل . نقل ناظريه بين العقب .. والمرأة . عاودته آلام عقب محترق . حاول أن يقول شيئا لكن الكلام مات فى جوفه .

حاولت أن تتحسس جسده فأفزعها ما بين اليوم والأمس . أحست أنها تضع يدها على مومياء . ارتمت فى تخاذل على الفراش وهى تحس مرارة تملأ فمها . أخرج سيجارة أخرى وأخذ نفسا عميقا ، كانت امرأته نائمة تتأوه ، وعرق بارد يتصبب من جبهته . وهو يحاول أن يتبين من خلال الدخان طيف أمه .

***

فى نفس الساعة التى وصل فيها من اليوم التالى .. مات صالح ، واحتار أهل القرية فى تبرير سر هذه الوفاة المباغتة ، والميتة المفرحة .. فقد خرج

السر الإلهى منه ما بين طرفة عين وانتباهتها دون ألم أو حشرجة ، والبسمة مرسومة على أسارير وجهه . وقد ذكر بعض المتطوعين لتفسير أى شىء فى الدنيا .. أن صالحا كان يعمل كثيرا ويأكل قليلا . والبعض الآخر قال إن صالحا وجد حقيبة مملوءة بالمال ، ولم يستطع أن يتحمل الفرحة فطق ومات ، وآخرون قالوا إن نقود صالح ضاعت أثناء العودة فمات كمدًا .. وهناك روايات وروايات .. فالناس هنا — كما قال عنهم صالح — لا يجيدون سوى الكلام .

وأهل القرية رغم اختلافهم فى سر الوفاة إلا أنهم اتفقوا على شىء واحد .. هو أن صالحا هذا به شىء لله ، فقد أدرك الرجل المبارك — رحمة الله عليه — بصفاء قلبه أن أجله قد انتهى ، فجاء ليموت بين أهله وعلى فراشه .

أصبح الحديث عن الشيخ صالح شُغل القرية الشاغل فى الحقول والبيوت والمقاهى ، وبدأوا يتحدثون عن كراماته حيا وميتا ، فقد ذكر بعض المشيعين أن النعش كاد يطير ، كأنما يريد أن يخرج من دار الباطل إلى دار الحق ، وأنهم رأوا طائرا أخضر يطير حين دفن الرجل الطيب بجوار أمه .!!

وقد ذكر أبو الغيط اللَّحاد أن شجرة بدأت تخضر على باب قبره دون أن يزرعها أو يسقيها ، وعندما جلستْ بجوار هذه الشجرة امرأة عاقر بالمصادفة أحست برغبة فى أن تنام مع زوجها ، فحملت بعد سبع سنين عجاف ، ونذرت إن جاء المولود ذكرا فسوف تسميه صالح .

لم يكفَّ أهلُ القرية عن الحديث عن كرامات صالح حينا من الدهر إلى أن حضر وافد جديد ، فذهبوا إليه يستقبلونه بحفاوة ، ويسألونه عما جرى له من أحداث فى البلاد السعيدة البعيدة ، فالعينُ لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع ، ما كان فهو ما يكون ، وما صُنع فهو الذى يصنع ، فليس تحتَ الشمس جديد . كل الكلام يقصر،ولا يستطيع الإنسان أن يُخْبر بالكل ... » .

وهنا يا سادة يا كرام طلع الصباح ، وسكت الراوى عن الكلام المباح[1] .

---

(١) كتبت فى سبتمبر ١٩٨٣ . ونشرت فى مجلة « إبداع » العـدد (٦/٢) يونيو ١٩٨٤ .

حكاية معروف الخفير والراعى الفقير

[حكاية قصيرة .. تعدّ بمثابة الليلة الثانية .. بعد ألف ليلة وليلة]

١ ـــ فذلكة على هامش الحكاية

قال الراوى :

« بلغنى أيها القارئ المجهول ، الذى يبحث عن الحكمة فى المعقول والمنقول ، أن هناك ضجة تراجى كوميك ، تدور حول حكايات المرأة والديك ، وما جرى لهما مع شهريار ، من غريب القصص والأخبار . وتواترت الأنباء أن كبير البصاصين والخفراء ، يستعد عندما يأتيه النداء ، لكى يعدم الكتاب ، فى ميدان السراب ، بأرض سوق الشعير ، على مرأى ومشهد من الكبير والصغير . ونظرًا لأنه ـــ أى الكتاب المشار إليه ـــ قد شاركت فى تأليفه والترويج له بلاد كثيرة ، فقد رأى بعض حكماء الخفراء أن الإعدام يجب أن يتم فى منطقة وسطى ، بين بلاد العرب والعجم والبربر ، ومن جاورهم من ذوى السلطان الأكبر . كما قرر ـــ بعظيم حكمته وسعة درايته ـــ أن نفقات الإعدام ينبغى أن يتحملها الضمير الغائب الحاضر ، حتى لا تدعى جماعة أو قبيلة ، أنها صاحبة الفضل فى هذا العمل ، الذى عجز عنه الأولون ، وقَدر عليه الآخرون .. ولله فى خلقه شئون .!!

وحيث أنى ـــ يا سادة يا كرام ـــ واحد من الذين أدركتهم حرفة

الأدب ، وهواية قرض الكتب ، فقد وجدت بعد التحرى والتنقيب ، والبحث والتجريب ، فى إحدى خزائن « الكتب خانة » السلطانية فى حىّ « باب الخلق » بعض صحف مخطوطة ، بخيط من الحرير مربوطة ، فأخذت — على الفور — أحاول فك أسرارها ، وتحقيق رسمها ، إلى أن وفقنى الله — سبحانه — إلى ذلك .

لكنى — بعد التحقيق والمطالعة — اكتشفتُ أن هذه الفِصلة ، تعدّ تكملةً لكتاب « ألف ليلة وليلة » ، فوجدتُ أنه — من باب الأمانة وإيثار السلامة — يلزم التنويه ، ورد الفضل إلى ذويه ، راجيا أن يلحقها أصحاب الأمر والنهى ، والجزم والنفى ، إلى الكتاب سالف الذكر ، حتى يجرى عليها ما يجرى عليه ، وسبحان من له الأمر وإليه . »

٢ — توضيح آخر لمن يهمه الأمر

« بقيتْ حقيقة هامة — يا سادة يا كرام — عرفتها بعد مكابدة الأشواق ، ومطالعة الأوراق ، مؤداها أن هذه الحكاية — التى نحن بإذن الله تعالى بصدد روايتها — لم تحدث فى أى قطر من أرجاء أمتنا ، التى ترفرف عليها رايات السعد والمجد ، وإنما حدثت وقائعها فى مدينة الورّاق ، من بلاد واق الواق . ولكن المؤلف — يرحمه الله — أراد أن يسبكها فى بلد مثل بلادنا ، حتى تكون قريبة المعنى ، يسيرة المبنى ، ولا سيما بالنسبة لقارئ مجهول ، يحب الطعمية والفول ، وغيرهما من

أنواع البقول » .

٣ ـــ حديث دنيازاد

في ليلة من ليالى الخريف المنعشة ، جلست دنيازاد ، مع أختها الكبرى شهرزاد ، فوجدتها حزينة بسبب سفر زوجها إلى ثغر من ثغور المملكة ، فأرادت أن تذهب عنها الفكر والحزن ، وتريها بأنها قد صارت قادرة ـــ مثلها ـــ على رواية الحكاياتِ وقصّ الأخبار والرواياتِ .

حدثنا الأديب الأريب أبو محمد بن عمران بن أحمد بن عبد الرحمن المنصورى ، العربى محتدا ، المصرى مولدا ، عن أبيه عن جدّه .. عن أبى حية النميرى ، قال قالت دنيازاد لأختها الكبرى شهرزاد :

ـــ من كان يظن أن الملك العظيم شهريار يُحسن ظنه بالنساء ، ويعترف لك بالفضل والثناء ، قائلا : لقد رأيتك عفيفة نقية ، وحرة تقية ، وأشهد الله أنى لم يعد لى فى النساء مأرب ، ولا فى الانتقام منهن مطلب ، بعد أن أنجبت لى البنات والبنين وأسعدتنى بعد الهمّ سنين وسنين .

قالت شهرزاد : الرجال يحسنون الظن بأنفسهم ، ويدعون أنهم الجنس الأقوى والأفضل ، لكنهم لا يحققون هذه القوة وتلك الأفضلية إلا إذا رضيتْ عنهم امرأة .!!

قالت دنيازاد : لقد كنت ـــ يا أختاه ـــ تروين للملك العظيم حكايات الأمراء والأثرياء ، و لم تروى له حكايات العامة والدهماء .

وسوف أقص لك الليلة حكاية غريبة ، ذات أحداث عجيبة ، وقعت مع معروف الخفير ، ووحيد الراعى الفقير ، وهى حكاية لو كتبت بالإبر على مآقى الزهر ، لكانت عبرة لمن يعتبر.

٤ ـــ ذِكر بعض ما جرى لمعروف مع زوجته

بلغنى أيتها الأخت الرشيدة ، أن هناك فى بلاد بعيدة ، قرب بلاد السند والهند ، فى بلاد لا تركب الأفيال ، وإنما تستخدم الحمير والجمال ، مملكة السلطان شعبان ، الذى لا يقل سطوة أو شهرة عن كسري أنوشروان . أما بطل قصتنا فهو رجل من هذه المملكة اسمه الشيخ معروف ، قد أتاه الله بسطة فى الجسم ، وفحولة فى الجرم ، لذلك ولاه السلطان رئاسة ديوان الخفر والبصَّاصين ، ليبسط الأمن على العاكفين والمسافرين ، ويعرف أخبار الداخلين والخارجين ، ويبطش بيده القوية على أعداء السلطان والدين . وقد نال معروف خطوة سامية عند مولاه السلطان شعبان ، حيث أثبت أنه رجل هذا الزمان ، الذى يرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت .!!

وفى ليلة من ليالى الشتاء الحزينة ، خرج معروف من داره متعكر المزاج ، كأنه بحر متلاطم الأمواج . فقد أرسل له حسين الجزار نصف تيس[١] وكبدة خروف ، وقد أمر زوجته أم الخير ، التى هى أم العيال ، وأنيسة الخاطر والبال ، أن تطهو اللحم ، وتكثر من الثريد والمكبوس ، لأن

(١) التيس : ذكر الماعز .

ذلك يشد العظم ويوقظ الرأس . واستجابت المرأة لولى نعمتها ، ومصدر سعادتها وشقوتها . وبعد أن امتلأت البطن الوسيعة باللحم ، وانتشتْ الصدرُ بأنفاس النرجيلة والفحم ، طلب من الزوجة أن تدخل معه حجرة النوم ، ليقضى منها وترًا ، فيقوى منه العزم . ولكن المرأة التى هى زوجته وحليلته أم الخير ـــ سامحها الله ـــ اعتذرتْ ـ صادقة أو كاذبة، الله وحده يعلم . وقالت له استح يا رجل فما زال العيال ساهرين ، ثم إن هذا موعد الدورة اللعينة ، التى ابتلى الله بها كل النساء ، منذ أخرجت أدمَ من الجنة حواء .

خرج معروف من داره ، سجين أفكاره ، يلعن زوجته التى لم يحاول طوال عمره ، أن يغيظها بضرة أو حتى جارية ، تؤنسه فى الليالى الخاوية . وأخذ يعاتب فى السر زوجته التى عاملها بكل مليح ، فقابلته بالقبيح ، وأخذ يتمثل بقول القائل الفصيح :

فعلنا جميلاً قابلونا بضدِّه   وهذا لعمرى من فعالِ الفَواجرِ
ومن يفعلِ المعروفَ فى غير أهله   يُجازى كما جُوزى مجيرُ أمِّ عامرِ

والذى أغاظه من زوجته أكثر ، أنه يعرف أنها فيما زعمت كاذبة ، لأن هذا كله كان بسبب كثرة الأشغال ، وهم العيال ، وتعكر البال .. كما تدعى حمّالة الحطب ، قليلة الذوق والأدب .

٥ ـــ فى انتظار الذى لا يأتى

جلس معروف على أريكته فى المخفر ، يُخفى غيظه بالنهى والأمر ، وأخذ يسأل الخفراء والبصاصين عما كانوا يفعلون . وأدركوا أن كبيرهم

ليس كعادته ، وأن الشأن معه على غير وتيرته . فأخذوا يعرضون عليه بعض ما أصابوا فى يومهم من العطايا والهبات ، التى أخذوها من أصحاب الحوانيت والعطارات ، لعله يرضى ، ولعل الليلة على أىّ نحْوٍ تُقضى. ولما فشلوا جميعا فى إدخال السرور على قلبه ، وتفريغ الهمّ — الذى لم يعلموه — من صدره ، تقدم خفير خفيف الظل ، هادئ البال ، اسمه ناصر الخال ، فهمس فى أذنه بخفة ، وهو يحمل فى يده لفة :

— هذه يا صاحب اللواء ، وكاسف الأعداء ، وصْفةٌ مفيدة ، مجربة وأكيدة ، اشربها بعد العشاء ، مع كوب من الحساء ، وبعدها سوف ترضى عنك أم البنين ، لأنها ستراك فحْلاً فى العشرين .

أخذ معروف اللفافةَ من يده ، ورمى بها بعيدا بعيدا ، وهو يصيح فيه : أخزاك الله يا رجل ، أنت تبحث عن المقويات ، ونحن نلتمس المهدئات ، ابعدْ ووحد الله ، وظُنَّ خيرا برجلك الكبير .

حدث فجأة هرج ومرج ، وعلت أصوات صياح ،كأنها نباح . وفى غمضة عين امتلأ المخفر بالبشر ، كأنه سوق العصر ، ودخل كثير من العامة والغوغاء ، وصياحهم يكاد يصل إلى عَنان السماء ، وهم يدفعون أمامهم رجلا ضعيف البنية ، فقير الهيئة . بيد أن طلعته لا تدل على أنه من أبناء الليل أو فعلة المعاصى ، أو المتسكعين على النواصى .

— اقبضوا على هذا الرجل ، فهو يرددّ كلاما غريبا ، فى كل مكان ، وينصت إليه (الفتية)(١) والشبان .

---

(١) فى الأصل : الصبية بدلاً من الفتية .

٦ ـ محاولة لعرض القضية

استرد معروف روحه المغتربة وهيبته المضيعة ، وتظاهر بالجد والوقار ، وصاح فى الكبار والصغار ، فهو دائما رجل الأقدار ، الذى يستطيع أن يبطش بالخارجين والشطار . فعبس ونظر ، وصاح ملوحًا بهراوته ، دون أن تهتز شعرة من لحيته :

ـ ما هذا الغثاء فى المساء .. ؟ هنا مخفرُ الشرطة ، وبيت العدل ، فلا تصيحوا كالأنعام ، لأن كل شيء هنا بالقانون والنظام .

دق الأرض دقات متواصلة بهراوته الغليظة ، ولمح لواحد من البصاصين بغمزة عين ، فأحضر على التوّ بعض الخفراء والبصاصين ، كأنما كان يضعهم فى جيبه .

ومن عجب أن العامة كانوا لا يقدرون على أن يميّزوا بين البصاصين والمتظاهرين ، لأنهم يلبسون مثلهم ، ويقفون بينهم . وهنا تقدم واحد من العامة ، فرد عليه فى ثبات :

ـ القانون على العين والرأس ، يا كبير الحراس ، ولولا هذا ما جئنا إليك ، وعرضنا الأمر عليك ، لأنه ـ يا سيدى ـ جد خطير ، ولا يحتمل التأخير .

كانت الأيدى تمسك من كل اتجاه بجلباب رجل هزيل ، تدل سيماه على أنه ليس بالكبير أو الجليل . ترى ماذا وراءه من أخبار وأفكار .؟! ظل معروف يضرب أخماسا فى أسداس ، لكن حكمته النافذة ، ورؤيته

الثاقبة ، جعلته عاجزا عن تحديد نوع الجرم ، الذى اقترفه ذلك القرم . فلما تفرسه أكثر ، إذا به يرى هيئته ألطف من نسيم الشمال ، فقال سبحان مغيّر الأحوال ، ومشتت الفكر والأقوال .

ظل الرجل الهزيل صامتا ، كأن ما يحدث من أمر العامة لا يعنيه ، وصياحهم لا يصل إليه ولا يؤثر فيه ، بينما هرج ومرج .. وصياح ونباح ، يأتى من كل مكان ، فخشى معروف أن يفقد هيبته ، وينسى العامة حدود وظيفته ، فصاح بصوت مثل الرعد فى يوم عاصف :

ـ أيها الناس إنى أرى رؤوسا قد أينعت ، وأصواتا قد ارتفعت . وما هذه طبيعة عباد الله الأبرار ، ولكنها عادة الغجر الأشرار ، حيث يتكلم تسعة فى وقت واحد ، ولا يسمعهم إلا فرد واحد . أيها الحراس خذوا من يخالف أمرى إلى الحبس . لا حركة .. لا صوت .. إياكم . والآن اتركوا الجانى وليحضر اثنان ممن ترضوْن من الشهداء .

ـ كلنا شهود .. كلنا رأيناه وسمعناه .

ـ قلتُ اثنان فقط لا غير ، فأنا معروف ، الخير الموصوف ، متى أضع العمامة تعرفونى .؟!

اطمأنت النفوس الثائرة ، وكفت الأيدى الحائرة . وسكتوا عندما نظروا إلى هراوته ، كأنما على رؤوسهم الطير . وما لبث أن دوى صوت عريض ، ذو نبرات مجللة يقول : أمرك يا صاحبَ الأمر ، لكنا سوف نقف حتى نشهد المحاكمة ، ونعرف حدود المسألة .

تقدم الجميعَ رجلٌ رثُّ العمامة ، غير متناسق القامة ، ذو بطن

منتفخة ، وقسمات متهدلة ، وقال :

ـــ اسمى عبد الله أبو كتكوت ، حرفتى بائع طيور ، ومحلى فى السوق الكبير ، خلف الجامع الأزهر ، لا تخْلو ـــ بدون فراخى وحمامى ـــ الأفراح والليالى الملاح .

ثم برز رجل آخر من بين الجموع ضخم الجسم ، كبير الحجم ، كأنه فحل جاموس ، وقال :

ـــ أنا يا كبير الحراس وسيد الناس ، حسين الجزار ، عظيم الجزارين ، والمستورد الشهير من كافة بلاد العالمين . كل أنواع اللحم تجدونها عندى .. ومستعد للبيع بالآجل والعاجل ، للمقيم والراحل ...

صاح الشيخ معروف بحدة ، وهو ينظر إليهما شذرًا : هذا تعريف أم دعاية ؟ ثم إنكم جميعا تريدون الكلام .. وهذا الغريب الضال أخرس ، كأنه أبو الهول ... من أنت يا رجل ؟

ـــ ....

ـــ قلت لك تكلم ، انطق وإلا ....

تعلقت الوجوه بالرجل النحيل الذى جاءوا به ، وتأملوه بعيون دهشة ، كأنما يرونه لأول مرة ، فكأن ما تراه العين فى الظلام ، غير ما تراه فى النور .

٧ ـــ الغريب الذى هده التعب .. فنسى اسمه

ـــ لم أعرف لى اسما منذ أعلنَّا سياسة الباب المفتوح ، واستوردنا كل أنواع اللحم المذبوح . وحتى أريحك ، ولا أعوقك عن تأدية واجب

رسمى ، أنت به حَفىّ(١) ، فليكن اسمى عندك وحيد .

ــ الحمد لله الذى فكَّ عثرة لسانك . لكن ما اسم أبيك ، وما صناعتك ، وكم عمرك ، وأين محل إقامتك .؟

ــ لقد مات أبى فلا داعى للحديث عن الموتى ، غفر الله لنا ولهم . أما مهنتى فهى رعى الغنم .. وكلنا راع .. وكل راعٍ مسئول . أما عمرى فقد ضاع .. مثلما قال القائل :

أضاعونى وأىَّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسَداد ثَغْرِ

وأما محل إقامتى يا سيدى .. فلا مقام لى فى أى مكان ، لأن حياتى كلها حل وترحال ، ومنذ حددوا إقامتى ، وشوَّهوا هويتى ، فقدت كل شىء حتى الخاتم ، واسم الحبيبة ، لدرجة أننى فكرت فى الهجرة والرحيل ، متمثلا بالقول الذى قيل :

ونفسك فُزْ بها إن خفتَ ضيْمًا ... وخلِّ الدارَ تنعى منْ بناها

فإنك واجدٌ أرضًا بأرضٍ ... ونفسك لم تجد نفسًا سِواها

حتى هذا لم أستطع أن أفعله يا سيدى ..!!

ازداد الصياح ، وتطاولت الأيدى ، تريد جذبه وشده ، والاعتداء على قدره ، مع أن الله سبحانه يقول : « فلا عدوان إلا على الظالمين » . وصاحت بعض الحناجر كأنها خناجر : مخرف .. مجّدف .. خارج .. عميل .. استكوه .. احذروه ..!!

---

(١) حفىّ : شديد الاهتمام .

صاح معروف كما ليثُ الشرى فى الميدان ، أو عنترة يوم هروب الفرسان : ما هذا الصياح والنباح ؟ لا يصح هذا ونحن فى دار تحرسُ العدل وترعى الأمن . أحذركم .. وأنذركم .. لا تحكموا قبل المحاكمة (التفت نحو الرجل الصامت) لم أثرتَ الناس .. وأشعلت الفتنة ، قل .. تكلم ، لم جاء بك الناس هنا دون خلق الله جميعا .؟

أجاب الراعى بهدوء : ولم لا تسألهم يا سيدى ؟

ــ أقول لك ماذا فعل ؟

ــ لا .. أنا الذى أقول ..

ــ بل .. أنا .. أنا الذى ..

ــ اصمتوا جميعا وليتكلم حسين الجزار .

أحس الجزار أنه رجل مهم ، وأنه محل ثقة الشيخ معروف ، فقال محدثا نفسه « غدا أرسل إلى بيت كبير الحراس ، نصف خروف ، إزاء هذا المعروف » . اصطنع الهيبة وهو يتقدم إلى الأمام :

ــ هذا الرجل يا سيدى والحق يقال ، زبون جديد على ميدان السوق ، لم نره إلا منذ أيام قلائل ، وهو لا يبتاع ولا يشترى ، لكنه يتحدث بلسان فصيح ، ويقول كلاما غريبا يجذبُ الناسَ إليه ، كأنه ساحر ، وما أحسن قول المحاذر :

ثلاثـــةٌ روضُهـــم باكِـــرْ   الصبُّ والمجنـــونُ والشّاعـــرْ

ــ أدخل فى الموضوع يا شيخ حسين .

ــ هذا الرجل يا سيدى صاحب قدرة فائقة على الجدل والحوار ،

يستطيع أن يجعل من الحبة قبة ، فهو داعية ...

ـ إلى أى شىء ؟

ـ إنه يدعو إلى مقاطعة المستورد ، ويحذِّرُ من مغبة فتح الباب والجوف[1] للحم الوافد .

ـ أى نوع من اللحم يقصد ؟

ـ كل أنواع اللحم حتى الدجاج الرومى والفراريج الد ينماركية . والأغرب من هذا يا سيدى أنه يخوف الناس .

ـ من أى شىء ؟

ـ من مغبة أكل اللحم المستورد ، وذهب فى غلوائه إلى درجة قال فيها .. إن أكل هذا اللحم سوف يفّرق بين الأخ وأخيه والأب وبنيه ، والرجل وزوجه ، ويجعل الناس سكارى وما هم بسكارى ، بل أكثر من هذا قوله إن هذا اللحم سوف يصيبهم بالعقم والعجز . !!

ـ هل هذا صحيح يا رجل ؟

قال الراعى فى ثقة : ليس هذا بالضبط ما قلته .. ولكن هذا بعض ما أعنيه وأدعو إليه .

ـ عظيم .. إذن اعترفت بالتهمة وإثارة الفتنة ، وهؤلاء الرجال الطيبون كلهم شهود عليك .

ـ لقد اعترفتُ بما قلت ، ولكنى لا أرى فى ذلك تهمة .!

---

(١) الباب : المقصود هنا : باب البلاد ـ الجوف : المعدة .

ــ ليس مهما الآن تحديد نوع الجرم أو طبيعة الإثم . (التفت ناحية أخرى) أيها الناس يجب أن تثقوا فى نزاهة القضاء والشرطة . انصرفوا بسلام آمنين ، فقد اعترف الرجل ، وقد أدليتم بالشهادة ، وسوف نستكمل معه بعض الإجراءات الخاصة ، ثم نحيله إلى قاضى القضاة ليحكم فى أمره ، ويفصل فيما قد نختلف حوله . اطمئنوا أيها الرجال الطيبون فقد فعلتم ما عليكم ، وعلينا نحن المسئولين الباقى .

ــ لا .. لن نذهب .

ــ لن نذهب إلا بعد أن نسمع ونرى .

ــ إن سلطاننا ــ أدام الله ملكه وأطال عمره ــ يؤكد دومًا فى خطبة الجمعة والعيدين، أن القانون فى بلادنا هو السيد الوحيد ، ونحن جميعا لا نفعل أى شىء .. أى شىء ، مهما هان أو عظم إلا بسيادة القانون . . أعدكم بشرفى أن التحقيق سوف يأخذ مجراه العادل ، ولن نفرط فى حق من حقوق الأمة ....(١)

٨ ــ المواجهة :

واصلتْ دنيازاد الحديث قائلة :

« بعد أن خلت ساحة المخفر إلا من معروف ، والراعى الملهوف ، وبعض الخفراء والبصَّاصين ، الذين وقفوا صامتين ، تربع معروف على

---

(١) وردت هنا بعض سطور عجز المحقق عن قراءتها .

أريكته ، وحرَّك إلى الأمام قلنسوته[1] ، ودق الأرض بمنسأته[2] .

أما وحيد ، فقد بدا ثابت الجنان ، مرهف الآذان . حقا إنه لم يُعد لهذا الموقف عُدته ، ولا ارتأى — رغم حِكمته — أن الذين يدافع عنهم هم الذين يظلمونه ، وإلى المحاكمة يقدمونه ، فقال مناجيا ربه « اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون » ....[3]

ظهر سلمان البصاص، قريبا من كبير الحراس ، وقد جلس خلف وحيد بحيث يرقبه ، والآخر لا يبصره . وأخذ يقتل الصمت بتنظيف خنجر يمنيّ ، كان يخفيه داخل ثوبه البنيّ .

— ما اسمك يا رجل .. قل .. تحدث .. فقد سمحنا لك بأداء الصلاة ، وأحضرنا لك الطعام ، و لم يبق لك عذر ، الآن قل .. تكلم .

— لست أدرى ماذا أقول يا سيد معروف .

— لكنك قلتَ هنا منذ لحظات .. وأمام شهود عدُول أن اسمك وحيد ، أليس كذلك ؟

اندفع سلمان صائحا : بلى .. لقد سمعته بأذنيّ هاتين .

— من طلب منك الكلام يا تيْس . لو كنت تؤدى عملك كما ينبغى

---

(١) أريكة : مقعد مريح — قلنسوة : طاقية .

(٢) منسأة : عصا .

(٣) هناك سطور ضائعة ، لأن هذه الصفحة من المخطوط كان بها بعض تلف ، بسبب سوء الحفظ وقلة الحظ .

لأحضرته أنت . ولكنك غبىّ أرعن ....(١)

شَغل وحيد فكره بمحاولة التعرف على المكان ، وتجاهل حـوار معروف وسلمان .

ــ الأمر كما توقعت .

ــ وماذا توقعت ؟

ــ أنت متهم من نوعٍ خاص .. خاص جدا .

ــ كيف تحكم علىّ ، و لم تدر ماذا فعلت ، بل لم تعرف اسمى ولا اسم والدى .

ــ هل تظن أيها الأبله أن ديوان الأمن نائم ، إن دفاترنا الخاصة تسجّل حركة كل منحرف أو ضال ، إلى أن يأتى يومه فنأخذه أخذ عزيز مُقتدر .

أخذت سلمانَ سِنةٌ من النوم ، فأسنـد رأسه إلى حائـط الحبس الرطب .

ــ من الأفضل لك ولأهلك أن تتكلم .. نعم تكلم قبل أن تتألم . انطق .. وإلا أنطقناك . وأحذرك فقد طال صبرى على غير العادة .

ــ تريدنى أن أتكلم يا سيدى .. عظيم ، فأنا رجل يحب الكلام ، بعد أن سئمتُ حياة الصمت مع الأغنام ، ولكن لى شرط ؟!

---

(١) حذف المحقق بعض ألفاظ وردت هنا ، لأنها تخدش الحياء . وقد وضع النقاط بديلا عنها من باب الأمانة الأدبية .

ـــ كيف تجرؤ على هذه القحة . لن أستجيب لأىّ شرط .. أنا ممثل الحكومة وحارس الأمة ، أنا الذى أشرط .. وآمر ، وما عليك إلا السمعَ والطاعة . اعلم أيضا أيها الصرصور الحقير ، أنك إذا لم تتكلم فسوف أحيل أوراقك .. وما كتبه البصاصون عنك إلى القاضى ، لينظر فى أمرك ، وهو لا يرد لى طلبا ، ولا يخالف لى رأيا ، فأنا وهو متفاهمان .. أتفهمنى ؟

راح سلمان فى نومه ، وقد علا صوتُ غطيطه ، فنهره معروف بهراوته ، فهب من غفوته :

ـــ نعم يا سيدى .. كل شى تمام .

وهنا قالت دنيازاد لأختها شهرزاد : لا أخفيك يا أختاه أن الشيخ معروف كان مغتاظا من الراعى ، بنفس القدر الذى اغتاظ به من زوجته .!!

فردت شهر زاد : أرأيت ، كيف تحرك النساء كثيرًا من شئون الحياة ، حتى وهنّ فى قعر الدار .؟!

٩ ـــ الاعتراف

ـــ الاسم يا سيدى وحيد ، إنْ راقَ لك هذا الاسم ، وإلا فسمنى أنت بما شئتَ . المهنة راعى أغنام ، وقد ورثتها أبًا عن جدّ . وهكذا تدرك أننى مثل الجزار وأبى كتكوت صاحبُ مصلحة فى القضية .

ـــ أية مصلحة .. وأية قضية ؟

ــ عندى أحد عشر رأسًا من الأغنام والماعز ، أعيش على ألبانها ، وأبيع ما يولد من نتاجها ، وقد ظل الحالُ على هذا المنوال ، إلى أن أصدر رئيس الديوان ، قرارًا يقضى بفتح أبواب البلاد ، لكل أنواع الاستيراد .

ــ أليس فى هذا حكمة من الرئيس المؤمن ، وحرص على راحة الرعية ؟

ــ لا أظن ذلك يا سيدى ، لم لا ندرب الناس على العمل ، وإنتاج ما ليس موجودا عندهم ؟

ــ وماذا بعد ؟

ــ ظننت فى البداية أن الأمر يتصل ببعض الحاجات الضرورية . شيئا فشيئا بدأ الباب ينفتح لكل شيء .. كل شيء ، حتى اللحم والحنطة والبطاطس .

ــ أنت مهموم إذن،لأنك لا تستطيع بيع أغنامك بالسعر الذى تحدده ؟

ــ ليس هذا بالضبط ، فالمسألة أعقد من ذلك . لست حزينا من أجل نفسى .. أو أغنامى ، وإنما أنا حزين .. حزين جدا يا سيدى ، لأن الأمور قد اختلط فيها الحابلُ بالنابل.!!

ــ وما دخل هذا بما كنت تقوله فى السوق ؟

انطلق سلمان كالملدوغ ، ليثبت أنه كان يقظا فى نوبة الحراسة : لقد كان يحذر الناس يا سيدى من أكل اللحم المستورد،ولا سيما الهامبورجر والفراريج الدينماركية .

— هل هذا صحيح يا رجل ؟

— نعم يا كبير الحراس .. فهذا اللحم المستورد غريب النكهة . والأغرب أنى بعد أن آكله أحس أننى مشلول أو عاجز عن الحركة .. لا أسمع .. لا أرى .. لا أتكلم .. لا أفهم . فى البداية حسبتُ أننى وحدى هكذا .. لكنى راقبتُ كثيرا من أهل القبيلة ، فوجدت نفسَ الظاهرة ، بل إنى فى ليلة الجمعة الماضية أخذت واحدة من هاتيك الفراريج ، وذهبتُ إلى أم العيال ، فأكلناها سويا . بعدها لم أجدْ نفسى .. و لم أجدْ ...

اغتاظ معروف فقد ذكّره بأمر يريد نسيانه ، فقاطعه قائلا : لا تتحدث عن أمورك الخاصة ، فنحن نسألك فى قضية عامة ؟

— إذن اتفقنا يا سيدى .

— على أى شىء ؟

— على أننا نتناقش فى قضية عامة من أجل المصلحة العامة ؟

— ما معنى نتناقش هذه ؟ كيف تجرؤ على أن تكون ندًا لى فى الرأى ؟

— لا تغضب ، فنحن جميعا نبحث عن الحق والعدل .. وأنت واحد من المسئولين عن هذا ، أليس كذلك ؟

— بلى .. أيها الرجل المتعب . ولكن الذى أراه هو أنك مثل أهل « الباطنية » الذين يُحرِّفون كل شىء عن مواضعه ، فما علاقة اللحم المستورد والباب المفتوح بالشلل والعجز، اللذيْن تّدعى أنهما أصابا كل الناس ، حتى زوجتك ؟

ـــ توضيح المسألة يا سيدى هو .... (١)

ـــ هناك أمر لا أفهمه . كيف وأنت راعى غنم تصل إلى كل هذه الآراء ، ثم ألا ترى أنك متشائم إلى حد كبير ؟

ـــ لا تنس يا سيدى أن الراعى يجب أن يكون حكيما .. وإلا ما أستحق أن يكون راعيا .

ـــ من أين هبطت عليك كل هذه الآراء الغريبة . لا بد أن لك زملاء ، تتحدث معهم فى هذه الأمور ويحدثونك فيها ، لكنك ادعيت البطولة مثل دون كيخوته .. لماذا إذن لا تحدثنى عن زملائك ؟

ـــ كيف أحدثك عن عروة بن الورد وعمران بن حطّان والجاحظ وواصل بن عطاء وأبى منصور الحلاج وأبى العلاء المعرى وأبى فراس الحمدانى والمتنبى والشيخ عز الدين بن عبد السلام وعبد الرحمن الجبرتى ورفاعة الطهطاوى و .. يحيى حقى و .. غيرهم الكثيرين .

ـــ أين تجتمع مع كل هؤلاء ؟ ثم ما هى على وجه التحديد هويتهم ؟ هل هم من الخوارج أم من القرامطة أم من المعتزلة أم من الشيعة ؟ وهل لبعضهم أى نوع من النشاط السياسى ؟

ـــ لو كان القلبُ خاليا لضحكت على ما تقول يا كبيرَ الحراس .!!

ـــ لا تظن أنك قادر على خديعتى ، قل مَنْ تجتمع بهم غير هؤلاء ؟

---

(١) هذ النص كان فى آخر الصفحة ، وهناك جزء منها قطع عمدًا ، والله وحده أعلم بما تخفى الصدور .

ـــ قلت لك إنهم كثيرون ؟

ـــ مثل من ؟

ـــ وليم شكسبير ودانتي وإيفان تورجنيف وفيكتور هوجو وجوته وسيرفانتس وهمنجواى ، وفوكنر وجابرييل ماركيز .. وصاحب « زوربا » اليونانى ... و ...

ـــ إذن فأنت لا تنتمي إلى جبهة سِرِيّة فحسب ، وإنما تتصل أيضا بجهات أجنبية . كيف حدث ذلك ؟

ـــ ذلك الذى فهمته لم يحدث .. ؟

ـــ لكنك اعترفتَ .

ـــ أنت تحاول أن تثبت شيئا ، لا وجود له إلا فى رأسك .!

ـــ لقد اتضحتْ الصورةُ وثبتت الرؤية ، فلا تحاول الخديعة ، وتذكر أن الرسول الكريم يقول « من غشَّنا فليس منا » .

ـــ كلمةُ حقٍ يُراد بها ....

ـــ اخرسْ يا كلب .. لقد أوسعتُ صدرى حتى أسمع كل ما عندك .. أما الآن فقد حصحص الحق(١) . أنت متهم ، خَطر على الأمن ، مثير للفتنة . يا سلمان .. ما زلتَ نائما أيها البعير الأجرب ، ذكّرنى غدًا حتى أخصم دينارين من مكافأتك السرية .. سلمان .

ـــ نعم سيدى .

---

(١) حصحص الحق : ظهر .

ـــ خذ هذا الراعى المخرف وضعه فى الحبس . شدد الحراسة عليه . إنه متهم ذكى ، وقد يحتال عليكم .. إياكم أن تتهاونوا معه . أكرموه وأحسنوا معاملته ، فالعدل الذى كفله سلطاننا العظيم يجب أن يشمل الرعية كلها ، فأينما تكونوا يدرككم عدل مولانا السلطان . (لا يزال شبحُ أم الخير يطادر رأسَ معروف المجهد .) لكن الأمر جد خطير ، ولا بد من عرض الأمر على رئيس الديوان ، لأن فى هذا خطرا ، وأى خطر على الرعية ومولانا السلطان .... (١)

١٠ ـــ النهاية غيرُ السعيدة :

قالتْ دنيازاد : طالت الليالى وأمتدت الأيام ومضى على الراعى عام وبعض عام ، دون أن يعرف جريرته ، أو يلقى القاضى ليعرض عليه شكايته . كان كلما سأل الخفير مَسْرورًا ، وهو المكلف بحراسته ، أنكر أنه يعرف شيئا عن قضيته،وأن الشىء الوحيد الذى يعنيه هو رعايته وحمايته ، فقضيته كما يعلم خطيرة ، ولا يستطيع أن يخوض فى أية سيرة ، صغيرة كانت أم كبيرة ..!!

ظل الراعى الفقير فى الحبس ، غير مدرك من أين جاء فى أمره اللبس . ولم يعد يعرف الفرق بين الليل والنهار ، فالحبس مظلم على الدوام

(١) هناك سطور محذوفة من النص ، والمحقق يناشد كل من توجد لديه نسخة أخرى من المخطوط أن يقدمها إليه ، وله الأجر والثواب من الله عز وجل .

والاستمرار ، وظل هكذا على حاله يفكر — دون جدوى — فى مآله ، إلى أن تولاه الله — سبحانه — برحمته ، فمات كمدًا ، ونُسى كأنه لم يكن أبدًا ، و لم يعرف أحد كيف مات ، بعد أن فات ما فات ، وكثرتْ الطوابيرُ أمام السوبر ماركت والجمعيات ، تشترى الفراريج والحلويات . ومن كان فى هذه الدنيا لا يَسْلم من الآفات ، وقد صدق من قال هذه الأبيات :

الدهـرُ يفتـرسُ الرجـالَ فـلا تكـنْ
مِمـن تطـيشُه المنـاصبُ والـرتبْ
واحـذرْ مـن الـزلاَّت واجتـنب الأسى
واعلـمْ بـأن الدهـرَ شيمتُـه العـطب
كم نعمـةٍ زالتْ بأصْغـرِ نِقمـةٍ
ولكـل شيءٍ فى تقلبـه سَبب

فسبحان الحىّ الذى لا يموت ، صاحب الملك والملكوت ، الذى لا يشغله حال عن حال ، وهو الغنى عن السؤال ، صاحب أفضلِ مقال « يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون * ألم يرْوا كم أهلكنا قبلَهم من القرون ، أنهم إليهم لا يرجعون * وإنْ كلُّ لمّا جميعٌ لدينا مُحضرون* » .

قال أبو حية النميرى : وهنا أدرك دنيازاد المساء ، فكفت عن الحديث

واللقاء . وفى الختام ، يا سادة يا كرام ، نضرع بالصلاة والسلام ، على طه خير الأنام(*) .

(*)تم تحقيق هذه الحكاية عن الأصل المخطوط بدار الكتب الأميرية تحت رقم ح . ش / ١٩٣٧ ، فى يوم الأربعاء ٥ يونيو سنة ١٩٨٥ ميلادية ، الموافق ١٧ من رمضان الكريم سنة ١٤٠٥ هجرية .
— نشرت فى جريدة « الشرق » — قطر فى ٢٤ نوفمبر ١٩٨٨ .
— نشرت فى جريدة « المساء » — القاهرة فى ٢٣ يناير ١٩٩١ — العدد ١٢٣٢٣ .

الفطيرة .. والسكين

(حكاية قصيرة)

أحس وهو يتقدم نحو المحكمة ، أنه يفعل شيئا لأول مرة فى حياته . عمره ثلاثون سنة ، ومع ذلك فلم يذهب مرة واحدة إلى قسم شرطة . أخذ يعيد حساباته من هنا .. وهناك ، فلم يصل إلى شيء . خشى أن يخبر زوجته بالأمر ، فتتسع مساحة القلق ، وهو لا يعرف للأمر مصدرًا .. أو سببا . اعتذر عن حضور مجلس القسم ، الذى سوف يتقرر فيه سفره ، لمؤتمر عن « أثر الانفتاح الاقتصادى على سلوك الشباب فى الدول النامية » ، حتى يكون صافى الذهن أثناء مقابلة وكيل النيابة . حين دخل أدرك أنه يجلس فى انتظاره . شاب وسيم يلبس بدلة زرقاء ورباط عنق كحلى سادة رغم حرارة مايو . استقبله بودّ ، وطلب كوب شاى . الرجل الذى جاء خائفا منه ، يتودد إليه . قدم له سيجارة فسحبها شاكرا . لاحظ أنه لم يستدع كاتبا ، فحاول أن يطمئن نفسه ، ويسترخى مع دخان السيجارة .

ـــ دكتور سمير ، أنت رجل مثقف ومدرس فى كلية الآداب .. أى قسم .؟

ـــ الاجتماع يا أستاذ ...

ـــ أسامة حجازى .

شعر بضيق عندما ظن أن الأمر قد يتصل بعمله الجامعى ، لا بد أن هناك شكوى كيدية قدّمها « فاعل خير » .. رغم أنه محافظ .. وملتزم .

ـــ ما دمتَ فى قسم الاجتماع فسوف تكون مهمتى معك سهلة . أرجو أن يكون هذا الموضوع سرا ، حتى نتأكد من الحقيقة .

ـــ أية حقيقة ؟

ـــ لا تتعجل يا دكتور ، كثير من الناس يظنون أن القانون لا يتعامل إلا مع المنحرفين والخارجين ، لكن هناك وجه إنسانى للقانون ، لا يبدو لهم بشكل واضح .

أخرج علبة سجائره ، وتناول واحدة بعد أن رفض الوكيل ، بحجة أنه معتدل فى التدخين . عاوده القلق من جديد ، لكنه حاول أن يبدو طبيعيا ما أمكن ..!!

ـــ ما الموضوع يا أستاذ أسامة ؟

ـــ الموضوع سوف تحدده أنت ، وتوضّح حدوده ، وما تقوله سيكون له أثر كبير فى تحديد موقفى منة .

ـــ لقد شغلتنى كثيرا .. لم لا توضح ؟!

ـــ أتعدنى بأن تقول الصدق ؟

ـــ أقسم بحياة أبى .

ـــ عظيم جدا .. أنا سعيد ، لأنك أقسمت بحياة أبيك .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن هذا هو جوهر الموضوع .

مع من يتكلم هذا الوكيل المغرور .. ألا يعرف أنى مدرس جامعى ؟! هذه عادة رجال النيابة والمباحث ، يلفون ويدورون .. ويصنعون

مقدمات مرهقة ، تجعل المحقق معه أو المتهم ، تهتزّ ثقته فى نفسه .. فيضطرب ويعترف — ليس بالحقيقة — وإنما بما يريدون هم سماعه . لا يا أستاذ.. لن أكون صيدًا سهلا.!! حاول أن يخفى هواجسه بالنظر إلى حائط المبنى الحكومى الأصفر . تأمل ميزان العدالة معلقا فى لوحة مائلة على الحائط .

— الموضوع يتعلق بوالدك الحاج سيد الحسينى .

— كيف ؟

— ما رأيك فى سلوكه وتصرفاته ؟ هل لاحظت فى السنوات الأخيرة أنه مسرف فى إنفاق المال ، أو أنه يبدده على غير مقتضى الشرع ؟

أحس آلة حادة تطرق يافوخه ، فقد مضى شهر لم ير فيه والده .. و لم يسأل عنه . إن الأب ما زال حتى اليوم هو الذى يسأل عنه ، ويزوره .. وكل مرة يأتى محملاً بالهدايا والفواكه والحلويات ، التى تحبها زوجته سلوى . حاول أن يسترد قواه المبعثرة ، وصاح كالملدوغ :

— هناك إذن من يدّعى على أبى هذا .. من هو ؟

— أرجو أن تتحكم فى عواطفك .. وأن تقول رأيك بموضوعية .

أثناء تدريباته ودراساته الميدانية ، لم يحاول أن يسأل العيّنات التى يجرى عليها اختباراته واستبياناته : هل يجيبون بشكل عاطفى أم موضوعى ؟ فقط كان جل همه إجراء الإحصاء ، وعمل الجداول والتصنيفات واستنباط النتائج . لكنه لم يسأل نفسه مرة : هل هذه الدراسات الميدانية صحيحة أم خاطئة ؟! « يموت المعلم ولا يتعلم » .

هكذا كانت تقول أمه ، رحمها الله .

— إن أبى — أطال الله عمره — كان صاحب ورشة موبيليا . فى السنوات الأخيرة وجد أن صحته ضعفت ، فقرر أن يقلب الورشة إلى صالة عرض. فتح الله عليه كثيرا ، لأنه لم يكن يطمع فى ربح كثير .. ولكن الله يعطى ويأخذ ... (سكت برهة) .

— كيف ؟

— فى الوقت الذى بدأ فيه اسم أبى يظهر فى السوق ، ماتت أمى ، ورسب سامى فى الثانوية العامة بعد أن استنفد مرات الرسوب . ومع هذا واصل أبى طريقه رغم المحن والتعب ، فساعدنى على الزواج ، وكانت أختى الكبيرة سميرة قد تزوجت من قبل . أخيرا توسط لسامى عند واحد من أصحابه فى شركة مقاولات . ثم فتح له بيتا وزوّجه ابنة عمتى .

— وماذا بعد ؟

— كل من تعامل معه يشهد أنه رجل طيب وأمين ، ولم يسىء حتى إلى من أساءوا إليه .

— أنت تتحدث عن الماضى ، لكنى أسألك عنه اليوم .

موقف عسير بلا شك ، حين يقف إنسان فى موقف الدفاع عن برىء يعرفه ... فكيف إذا كان هذا البرىء هو أبوه ، الذى يحمل اسمه ؟

— أستاذ أسامة إذا كنت تريد أن تصل إلى الحقيقة عن أقرب طريق كما طلبت ، فاسمح لى بسؤال .

— تفضل .

ـ فهمت مما تقول أن هناك شخصا يفترى على أبى ويدّعى أنه يبدد أمواله .

ـ نعم .

ـ من هو ؟

ـ لو قلت اسمه ، فقد يؤثّر هذا على أقوالك .

ـ إطلاقا يا سيادة الوكيل ، أرجو أن تثق فى كلامى .

ـ قبل أن أقول اسمه ، اسمح لى بأن أوضح شيئا .

ـ ما هو ؟

ـ القانون يمثل ضمير المجتمع ، وبالتالى فإن من واجبه المحافظة على أرواح الناس وممتلكاتهم ، وهو بهذا الحق يحافظ على المال العام والخاص على حدّ سواء .

ـ تريد أن تقول إن القانون قد انتهى من متابعة تبديد المال العام وشركات الاستثمار الوهمية ، وتفرغ الآن للمال الخاص .

ـ لا تحاول أن تفرّع القضية ، فقط ينبغى أن تعرف أن المادة رقم ٦٨ من قانون الولاية على المال ، تبيح لمحكمة الأحوال الشخصية الحجر على إنسان يبدد ماله ، بناء على طلب صاحب شأن أو مصلحة .

ردّ عليه بانفعال : ومن صاحب الشأن أو المصلحة فى مال أبى ؟

ـ سامى سيد الحسينى .. أظنك تعرفه جيدا .

كأنما صدمه ماس كهربائى . اضطرب .. اكفهر وجهه .. جف ريقه ..!! سكت لحظة يسترد فيها أنفاسه ، ثم أردف بانفعال :

ـــ عملها سامى الأحمق .. أعمال شاذة كثيرة كنت أتوقعها منه إلا هذه .

كيف قدم شكواه .؟

ـــ إنها ليست شكوى ، فقد جاء إلى هنا بنفسه ، (أخرج ورقة من درج المكتب .. وعرضها عليه .) وقدم طلبًا بالحجر على أبيكم . ونظرًا لدقة الموضوع وحساسيته ، قررت أن تكون أنت أول شاهد آخذ رأيه .

لم يكن قادرا على ابتلاع كمية المرارة التى دارت فى حلقه . أشعل سيجارة وأخذ منها نفسا واحدا ، و لم يستطع أن يكملها . لم يلتفت إلى وجود الطفاية التى إطفأ فيها أكثر من سيجارة ، رمى السيجارة على الأرض ، وأخذ يدوسها بحذائه . لم يكن يظن أو يتخيل أنه سيقف يوما فى موقف مثل هذا . إن مناقشة الدكتوراه أهون من هذه الجلسة الثقيلة . لا فائدة ، اللعنة حلت .. والمصيبة قادمة .. والفضيحة سوف تنزل عليهم أجمعين . الخوف كل الخوف أن يصل الخبر إلى الأب المسكين .!!

أيقظه الوكيل من شروده سائلا :

ـــ بالمناسبة ما رأيك فى سامى .. أقصد أخاك .؟!

ـــ لعنه الله ألف لعنة .. إنه أحمق .. وغبى . شاب فاشل لم ينجح فى أى شىء ، ويريد أن يأكل ويدخن ، ويتعاطى المخدرات وربما الخمر أيضا . ومع أنه متزوج ، إلا أننى لا أستبعد أن تكون له علاقة بامرأة عاهرة .

ـــ متى رأيته آخر مرة.؟

ـــ لست أذكر .. ربما منذ شهرين ، فنحن لا نتزاور ، وإنما نلتقى مصادفة فى بيت أبى .. أو بيت أختنا الكبرى ، التى تعطف عليه بسبب وصية المرحومة أمنا .

خرج من مبنى المحكمة ، لأنه لم يعد قادرا على مواصلة الحوار ، طلب من وكيل النيابة ألا يفعل شيئا فى القضية إلا بعد أن يعود . حركة الشارع صاخبة . لم يجد فى نفسه قدرة على حضور مجلس القسم الذى طلب عقده للموافقة على سفره . لماذا يسافر.؟ كيف يكون متخصصا فى علم الاجتماع ، وأسرته أوضح شاهد على فشله ، وعلى أن الكلام شيء ... والواقع المر شيءآخر . سامى هو المشكلة .. وأنا من يجب عليه أن يبحث عن الحل ، وإلا فإن أية درجة علمية ليست إلا حبرًا على ورق ..!!

***

ما أقسى أن يُؤتى حَذِر من مأْمنه . ظن فى البداية أن هناك « فاعل خير » غريب قدم فيه شكوى كيدية ، فإذا به يفجع بأن فاعل الخير هو أخوه ، والشكوى فى الأب المسكين ، الذى لم يقصّر فى حق أبنائه يومًا ما . لم ينل أى قسط من التعليم ، إلا أنه كان حريصا على أن يعلم أبناءه : سميرة تخرجت فى كلية البنات ، وهى الآن مدرسة لغة عربية ، وهو حصل على الليسانس الممتازة فى الاجتماع ، ثم عين معيدا وحصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى ، ويحظى بسمعة طيبة عند أساتذة الكلية والقسم . وقد سعى رئيس القسم بنفسه ليزوّجه ابنته تأكيدًا لإعجابه بذكائه وامتيازه . أما سامى الشقى .. فقد كان منذ صغره فوضويا يكره

المذاكرة .. ويرفض النظام ، وقد ساعد على تماديه فى الشقاوة ، انشغال الأب فى العمل ، وتدليل الأم . أدرك الوالد منذ وقت مبكر أنه لن ينفع فى التعليم ، فاستأذن الأم فى أن يأخذه معه فى الورشة ، لكنها رفضتْ بإصرار :

ـــ لا بد أن يتعلم الولد كما تعلم أخواه . أنت رجل تعرف الله ، فلا تفرق بين أولادك .. حتى لا يتعقّد الولد ، يا حبة عين أمه .

سأل نفسه : هل النجاح والاجتهاد توفيق من الله سبحانه وتعالى ، أم أن الإنسان مالك أمر نفسه ، ومقرر مصيره بيده ..؟!

القضية الآن قضيته هو ، وليست قضية وكيل النيابة . إنه يعدّ نفسه مسئولا عنها أدبيا .. وعلميا .. ما فائدة أن ينال الدكتوراه فى علم الاجتماع ، وهو لا يعرف أن يحل مشكلة وقعت فيها أسرته ..؟ لم يذهب إلى البيت .. أو إلى الكلية ، وإنما توجه إلى بيت أخته الكبرى . طرق الباب ، ودخل متجهما . حين رأت وجهه شاحبا وصوته مضطربا .. أدركت بالفطرة أن هناك أمرًا يشغله أو يضايقه . منذ ماتت الأم وهى تحاول على قدر ما تسمح الظروف ، أن تعوض بعض حرمان الأسرة من حنان الأم . لكن العمل والزواج والإنجاب .. ورعاية الحماة ، كل هذا شغلها حتى عن نفسها ..!!

أخذته من يده ، ودخلت حجرة النوم :

ـــ خيرا .. ماذا حدث يا أخى؟

ـــ هناك مصيبة .. أو فضيحة على الأقل .

ــ فأل الله ولا فألك .. لماذا يا حبيبى ؟!

ــ تصوّرى ، سامى المجرم يريد أن يقتل أباه .. ويفضحنا .

ــ من الصباح وعينى اليسرى ترفّ ، قل ما الخبر .. فقد تقطّع قلبى .؟

ــ الكلب المسعور قدم طلبا إلى النيابة يريد أن يحجر على أبينا ، يريد هذا المجنون أن يأخذ مال أبيه ، لكى يصرفه على المخدرات وأصدقاء السوء . قلت فى نفسى إنه لا يمكن أن يرتكب هذه الحماقة ، قبل أن يكون قد استشارك .. أنت دائما تعطفين عليه .!!

نزلت الدموع من عينيها .. وأخذت تئن وتتشنّج ، لدرجة أن الحماة سمعت صوتها ، فجاءت مهرولة تريد أن تستطلع الأمر ، وأخذت تربت على كتفها قائلة :

ــ خيرا يا ابنتى .. ماذا فعلت بسميرة يا دكتور ؟

بين بكاء الأخت .. ودهشة الحماة ، أدرك أنه لن يأخذ حقا ولا باطلا . لم يظلم أخته .. ويترك المجرم الحقيقى ؟! اتجه مسرعا نحو الباب ، دون أن يقول شيئا ، أو يسمع شيئا .

***

ليلة حارة من ليالى مايو سنة ١٩٨١ . جو مايو فى القاهرة يكون أحيانا أسوأ من حرارة شهور الصيف الحقيقية . جلس الحاج سيد الحسينى وحيدا فى بيته . أخذ يتذكر الأيام الخوالى . هنا تجلس أم سمير .. وهناك سمير وسميرة ، الولد سامى يعبث فى قنوات التليفزيون . هيه ..

دنيا ..!! تنهد متحسرا على الماضى والحاضر ، وأحس طعنة سكين حين تذكر المستقبل . هو الآن وحيد بعد وفاة المرحومة .. وزواج الأبناء . لم يعد قادرا على العمل ، ماذا يفعل شيخ فى الستين أدى واجبه ، وكافح فى الليل والنهار ، وفى الشتاء والصيف ، وربّى البنين والبنات ..؟ من يعينه على أن يقضى بقية أيامه فى راحة وهدوء ..؟!

قطع عليه خيوط تأملاته دخول سامى . فتح الباب بمفتاح معه ، فما زال كل واحد من الأبناء يحمل مفتاحا . سلّم ببرود وجلس أمامه . هو الوحيد الذى يجرؤ على التدخين فى حضرة والده .

— كيف حالك يا حبيبى ؟

— بخير .

أحسن أن ولده حزين ، فانتقل إلى جواره ، وقبل جبهته فى حنان ، وأخذ يدعو له سرًا ، ثم قال :

— أنت غير طبيعى يا بنى .. لازم البنت سعاد ...

قاطعه بحدة : لا سعاد .. ولا غيرها يؤثر فىّ .

— ما رأيك لو تعشينا سويا .. وبعدها تقول كل ما تريد . موافق يا سمسم .

انتقل من جوار أبيه وجلس أمامه . لم يلحظ سمات الحزن البادية على وجهه ، أو آثار الكبر التى بدأت تهدّ حيله .

— جئت من أجل موضوع عرفته اليوم صدفة من الحاج سعودى . سامحك الله يا حاج سعودى .. لماذا قلت لذلك الولد المجنون ؟ أى

واحد من الأبناء أو حتى من الغرباء .. لم يكن ليجرؤ على أن يناقشه فى شىء .. أما سامى فحسبى الله ..!! لحظة صمت مُرّ ..!! العادة أن يحاسب الآباء أبناءهم .. أما أن يحاسب الأبناء الآباء فهذه بلا شك آية من آيات القيامة. حين عصى نوحا ابنه ، جاء الطوفان.. وغرقت الأرض بمن فيها . موقفٌ شديد القسوة أن يقف الأب مظلوما والابن ظالما وجها لوجه . عصر الانفتاح فتح الباب لحبوب الهلوسة وبودرة الهيروين وحقن المورفين ....!!

أحس بانكسار شديد . تمنّى الموت . يارب .. لم اخترت زوجتى .. و لم تخترنى معها ؟ لقد أديت دورى .. وآن لى أن أرحل . ابنى الذى جئت به من صلبى ، يريد أن يقذف بى من على مسرح الحياة .. الصبر يارب أيوب .. ومفرج الكروب .! أيقظه من تداعى آلامه صوت ولده :

— لم تقل لى .. هل ما قاله الحاج سعودى صحيح أم لا ؟!

— لم تشغل نفسك بهذا الموضوع ؟

— أنا ابنك .

— بارك الله فيك .. اسمع يا حبيبى ، أنا مطمئن على إخوتك وعليك ، كل منكم يعمل وله بيت .

— عظيم .

— كل واحد منكم له حياته الخاصة . لكن المشكلة فىّ أنا . لقد صرت عجوزا وحيدا ، فى حاجة إلى خادمة ترعانى . الزوجة أرخص خادم فى الوجود .. تعدّ الطعام وتنظف البيت ، وتؤنس الوحدة .

ـــ أنت تخون ذكرى أمى .

ـــ رحمها الله .. لم أر يوما مريحا منذ رحلت ، و لم ينظف لى أحد ظهرى منذ مرضت . الفاتحة على روحها .

بينما كان مشغولا بتلاوة الفاتحة ، لاحظ أن الولد لم يقرأها .

ـــ لماذا لا تأتى لتقيم مع واحد منا ..؟ أعرف أنك لا تحبنى كثيرا ، لكن هناك سميرة وسمير .

ـــ لم تقول هذا يا حبيبى .؟ كلكم أبنائى . صدّقنى أنا أحبك ، وأخاف عليك أكثر. (كاد يبكى، لكنه تماسك، حتى لا تفضح الدموعُ أحزانه) . فى الحقيقة يا بنى لا أريد أن أكون حِملاً على أحد .!!

ـــ لو كنت موظفا كبيرا مثل إخوتى لجئت للإقامة معى ، خاصة وأن زوجتى ابنة أختك ، لكنك لن تستريح عند موظف صغير يعمل بالإعدادية .

ـــ الحمد لله أنك موظف والسلام .. شركتك لا تحاسب الموظفين بالشهادات ، ولكن بالعمل .

لقد قصَّر فى حق نفسه .. وأهمل فى دراسته ، والآن يريد أن يحاسب أباه على ما فرط هو فى حق نفسه .

ـــ لو كنت أبى بحق لأخذتنى معك أدير لك حسابات معرض الموبيليا .

ـــ لن تكون رجلا بحق ، إلا إذا عملت وحدك دون مساعدة أب .. أو أخ . ثم ما فائدة فتح باب المواجع الآن يا بنى ؟!

ـــ لأنك تريد أن تبدد ثروتنا . لم تكتف بأن تترك المعرض للحاج سعودى ، لكنك تريد أن تتزوج .

ـــ أولاً الحاج سعودى ليس غريبا .. وهو رجل أمين يخاف الله . أما الزواج فليس أمرًا محرّما ، إنه شرع الله يا بنى !!

ـــ أية امرأة تقبل رجلا فى مثل سنك ؟

ـــ وهل تحسب أباك عجوزا يا ولد ..؟ الدهن فى العِتاق .!

ـــ لكنى لا أسمح .. نعم لن أسمح (ابتلع ريقه ، وأطفأ سيجارته .) ولن يسمح إخوتى .

ـــ وما شأنكم أنتم بهذا ؟

ـــ ما زالت لنا حقوق عليك .

ـــ وهل قصّرتُ فى شىء ..؟ لو كنتُ رجلا مثل الآخرين لطالبتكم أنا بحقوقى عليكم .

ـــ لا فائدة من الكلام معك .

خرج سامى مغاضبا .. وترك الأب وحيدا حزينا . نظر إلى طعام العشاء على المائدة . سامحك الله يا سامى . تمنى أن تكون ليلة سعيدة تؤنس وحشته ، لكن سامى ـــ كعادته ـــ لا يأتى بخير . ذهب إلى السرير ، وهو يدعو الله أن يهدى ولده ويوفقه . رغم حاجته الملحّة إلى امرأة ترعاه ، قرر ألا يغضب أبناءه .. ويعيش أيامه الباقية فى هدوء ، حتى لو كانت التضحية على حسابه هو فقط لا غير .!!

***

أدرك الدكتور سمير أن مفتاح القضية فى يد سامى . ما الذى أوصل سامى إلى هذه الدرجة من الانحراف ؟ هل هذه مسئولية الأب الذى ينشغل طول الوقت من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده ، ويتركهم دون رعاية وتربية ، أم مسئولية الأم التى دللت ولدها الصغير ؟ هل هى سميرة التى لم تكن تجرؤ على إبلاغ الأب بأن سامى يسرق مصروفها ، أم أن سمير نفسه قصّر فى حق أخيه ، وشُغل بطموحه الشخصى عن الأسرة كلها ؟ أراد أن يصبح أستاذا فى الجامعة .. وقد صار ، لكنه لم يهتم بأخيه ، ولم يحاول أن يفيده من تجربته . كان ينبغى أن يكون صديقًا له ، قبل أن يكون أخاه .! لقد صار متخصصا فى علم الاجتماع ، وهو الآن عاجز عن حل مشكلة وقعت فى بيته .؟! أليست الظروف أقوى منا جميعا .. كيف يحمى أخاه من أصدقاء السوء ، ومن مشاهدة مباريات الكرة ، وأشرطة الفيديو ، وشرب المخدرات ، ومعاكسة الفتيات .؟ كل هذه دوافع قوية للانحراف فهل يستطيع وحده أن يقف أمام الطوفان ؟ ليس هذا وقت العتاب أو الحساب . لا بد من إيقاف المصيبة ومنع الفضيحة بأية وسيلة . هابيل لابد أن يواجه قابيل .! هذه هى الطريقة الوحيدة للحل ـ كما رأى .

فتحت الباب زوجة سامى ، وهى تحمل طفلا رضيعا :

ـ أين سامى يا سعاد ؟

ـ لا يزال نائما .

ـ الساعة الآن التاسعة مساء .

ـــ أنت تعرف عادات أخيك .

ـــ ليس أخى .. إنه مجرم ونذل .

ـــ خيرا يا دكتور ؟

ـــ من أين يأتى الخير .. وهذا الملعون وراءنا . لو سمحت أحضريه وخلّصينى .

تناول سيجارة وهو يقرأ على العلبة « تحذير حكومى .. وزارة الصحة تحذّرك من أضرار التدخين » . كل شىء فاسد فى هذه الأيام ، حتى الأبناء ـــ مصدر الفرحة والبهجة فى هذه الدنيا ـــ صاروا لعنة على من جاءوا بهم إلى الحياة . من المسئول عن هذا التفسّخ ؟ تذكّر أنه كتب بحثا عن « الضبط الاجتماعى » ، وانتهى إلى أن علماء الاجتماع المعاصرين ، يرون أن القضية الأساسية التى ينبغى أن يهتم بها علم الاجتماع اليوم هى قضية الضّبط الاجتماعى ، ومع كثرة ما كُتب فيه ، إلا أن العلماء لم يتفقوا على معنى دقيق له ، وقد دفعهم هذا إلى الاعتقاد بأن الضبط الاجتماعى هو فى حقيقة الأمر « عامل موحّد » فى دراسة السلوك الإنسانى ، لذلك فإن الأمر يستلزم اشتراك عدد من العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، لفهم مشكلات الضبط فى المجتمع .

دخل سامى بين النوم واليقظة محمر العينين ، أشعث الشعر ، بدا هزيلا نحيلا . مد يده لكى يصافحه .. لكنه لم يسلم .

ـــ ألا تسلم على أخيك .. وأنت فى بيته ؟!

وضعت الزوجة الشاى ، وأرادت أن تجلس فنهرها قائلا :

ـــ أدخلى يا امرأة ، هناك حساب بينى وبين أخى .

ـــ ما هذه الحماقة التى ارتكبتها ؟

ـــ منذ كنّا صغارًا وأنت لا ترضى عن أى عمل أعمله ، لكن هذه المرة بالذات يجب أن تكون سعيدا ، لأن ما فعلته فيه الخير لنا جميعا ...

قاطعه بحدة : هل هناك خير يأتى من ناحيتك ، قل تأتى مصائب .. فضائح ؟!

ـــ أبوك كبر يا دكتور .. وبدأ يخرّف . لم يريد أن يتزوج ، وهو فى هذه السن ؟ أنت لا تعرف الحكاية بالضبط . الحاج سعودى الملعون يسرق المعرض ، وسوف يأتى له بعاهرة تسرق البيت أيضا .. ونخرج من المولد بلا حمص ، لكنى لن أمكّنه من سرقة أموالنا .

ـــ من قال إن هذه أموالنا يا غبى .. هذه أموال أبيك ، جمعها بعرق جبينه ، ومن حقه أن يفعل بها ما يشاء . إننا جميعا قصّرنا فى حقه ، لقد خلّف وربّى وكافح ، وهو الآن يرجع إلى البيت فلا يجد من يخدمه . نحن أولاد حرام،إن لم نساعده على أن يقضى أيامه الأخيرة فى راحة وهدوء ..!!

حاول أن يقدم له سيجارة فرفض . قال سامى ببرود ، وهو يشعل السيجارة :

ـــ صدعت رأسى يا جدع .. لا صبر لى على المناقشة . قل ما تريد وخلّصنى ، فأنا على موعد بعد قليل .

ــ تسحب البلاغ الذى قدمته للنيابة .

ــ مستحيل .. مستحيل .

ــ قد يموت أبوك غما إذا عرف ..!!

ــ وأنا أموت غمًا إذا عرفت أن أموالى تُسرق أمام عينى ، وأقف ساكتا كالمغفل .

ــ أنت مغفل بالفعل ، حين تفعل هذا بأبيك .. لقد رباك وزوّجك .. ووظفك ، وأحضر لك شقة ما زال يدفع إيجارها حتى اليوم .

ــ هذا واجب عليه .

ــ وأنت .. أليست له واجبات عليك ؟! ظننت أنك سوف تصبح رجلا عندما تعمل وتتزوج .! لكن لا فائدة .. شلة الصائعين الضائعين .. السكارى المساطيل ، جعلتْ رأسك مستودع زبالة .

ــ لست طالبًا عندك حتى تعطينى محاضرة .. الزم حدودك .

ــ أنت أحمق .. ومجنون ، لكنى لن أسمح لك ، لن أسمح لك بأن تهد الأسرة ، وتفضح العائلة .

ــ كلمة واحدة يا دكتور .. اخرج من بيتى .

خرج مهموما .. مهزوما . لم يستطع أن يقنعه كأخ شقيق .. أو كعالم اجتماع . اسوّدت الدنيا فى عينيه ، وهو يقود السيارة ناحية البيت .! إن ما حدث من سامى أمر لا يفهم ، وإذا فُهم فإنه لا يعقل ، وإذا عُقل فإنه لا يصدق ، وإذا صُدق ، فإن هذا يعنى أن المجانين أكثر تأثيرا فى حركة الحياة من العقلاء .

***

دخل الحاج سعودى وسلّم على صديقه قائلا :

ـــ خيرا يا حاج سيد . لم تأت اليوم إلى المعرض فشغلت عليك .

ـــ أحس بتعب ، عندى صداع شديد .

ـــ قم يا رجل يا عجوز .. الدلع لا ينفع معنا .. (فتح لفة كان يحملها ، ثم وضعها على المائدة) لقد أحضرت لك العشاء .. أحضرت لك فطيرة وفرخة من يد أم حسين .

ـــ شكرا .. دعه عندك . (سكت ثم أردف .) هل قابلت سامى بالأمس ؟

ـــ قابلنى صدفة .. وتعمدت أن أقول له حتى يعرف .

ـــ ليتك ما قلت .

ـــ من يفعل أمرا صحيحا ، لا يهمه أن يعرف الآخرون .

سادت فترة صمت قصيرة طويلة بين الرجلين .

ـــ جاء هنا أمس يا حاج سعودى وهددنى .!!

ـــ سامى يفعل هذا ؟!

ـــ إنه أكثر إخوته بؤسا وشقاوة . يريد أن يرثنى وأنا حىّ .. مع أنى لم أقصر فى حقه .

ـــ لا تكن حساسا إلى هذه الدرجة .. أنت رجل ، ومن حقك أن تستريح ، وتفعل ما تشاء .

ـــ على كل ، أجِّلْ هذا الموضوع ، قلبى يحدثنى أنه لن يمر على خير .!!

سادت فترة صمت بين الرجلين . خرج الحاج سعودى وهو مشفق

على صديق عمره . قعد الرجل وحيدا فى سريره ، يفكر فى الماضى .. والحاضر . ما فائدة هذه الحياة .. ولماذا نتعب فيها .. ولماذا نتزوج وننجب .؟ إن ما يحس به من راحة وسعادة مع سميرة وسمير ، يعدّ نقطة فى بحر التعاسة التى يشقى بها مع سامى . نظر إلى المائدة وتذكر فطيرة أم حسين وفرختها ، لكن مشاعر الالم والحسرة والحزن والشفقة والغضب والسخط ملأت رأسه . الإنسان حين يكبر يجد من الأحداث والمصائب ما يجعله زاهدا فى الحياة والأحياء ، وعندما يأتيه ملك الموت ليقبض روحه ، يسعد لأنه يغادر الدنيا ، وقد اسودت فى عينيه كل طاقة أمل .!!

***

ــ العبْ .. يا مُلعب .

هكذا صاح سامى فرحا ، وهو يلعب الكوتشينة مع بعض أصدقائه : الأسطى فرج السباك ، ومحمد كوبس الكهربائى ، وعبده مرسيدس الميكانيكى ، والحاج مختار الجزار ، والمعلم قرنى السمسار .

ــ كسبت الدور يا هندسة .

ــ حظك ضائع فى كل شيء إلا اللعب يا سمسم .

قال سامى : نلعب دورا جديدا .

قال الحاج مختار : لحمة الرأس والممبار وجعت بطنى ، نشرب حجرين وكأسين أولاً ، حتى أفيق لكم .

قام عبده مرسيدس يغنى ويرقص :

سلامتها أم حسن وسلامـــتك يـــا حسن
م الـــــعين وم الحسد

صاح فرج : صوتك نشاز يا زفت .. قولوا معى :

ـــ هل رأى اللعب سكارى مثلنا ؟

فردوا عليه : سكارى مثلنا .. سكارى مثلنا .

أخذوا يغنون .. ويرقصون .. ويدخنون الحشيش .. ويشربون الخمر .. كله على كله .

ـــ ساعة الحظ لا تعوض .

ـــ الدنيا سيجارة وكأس .

ـــ اشرب يا غشيم .

ـــ ولّغ يا هندسة .

ـــ الصنف آخر حلاوة .

ـــ ينصر دين الحكومة .. حبيبة الشعب .

ـــ رأس بلا كيف تستحق سيف .

فى الطريق إلى البيت ركب سامى مع المعلم قرنى عربته الفيات .

ـــ ماذا عملت مع أبيك ؟

ـــ ذهبت إليه .. كلمته ، سوف يسلّم قريبا .

ـــ لو أخذت المعرض يا ولد يا سامى ، سوف أشاركك فيه ، ونحوّله إلى بوتيك .

ـــ المعرض أكسب يا معلم .

ـــ وكيف نبيع الصنف يا غشيم ؟ (أعطاه سيجارة ، وأوقف السيارة فى مكان مظلم . تأمل عيونه المحمرة ووجه المرهق على ضوء الولاعة .)

هل يمكن أن تأخذ إجازة غدا .؟

ـــ خيرا يا معلم .

ـــ يوم واحد ، و تأخذ نصف باكو .

ـــ خمسمائة جنيه !!

ـــ مشوار صغير إلى بورسعيد ، تحمل شنطة سمسونايت ذهابا وإيابا .

ـــ ماذا فيها ؟

ـــ فى الذهاب دولارات .. وعند العودة الحبوب ، يا حبة عينى .

ـــ موافق يا معلم .

***

هبت سميرة من نومها مذعورة ، وصرخت استيقظ على إثرها زوجها فاروق ، أضاء الأباجورة بسرعة ، وهو يقول :

ـــ سميرة .. مالك يا حبيبتى ؟

ـــ كابوس فظيع .. رأيت بومة تنعق فى بيتنا ، وأمى ـــ رحمها الله ـــ تلبس ثوبا أسود ، وتصرخ .. وتبكى .. وتندب .. وتنادى علىّ .!!

ـــ اللهم اجعله خيرا .

قالت باكية : أبى المسكين .. أخشى أن يكون به أمر .

ـــ كنتِ معه منذ ساعات ، وتركته فى صحة وعافية .. فما الداعى لهذه الوساوس ؟ (نظر إلى ساعة الحائط .) الساعة الواحدة صباحا .

انتفضتْ كالملدوغة ، وهى تخلع ملابس النوم :

ـــ أبى به شيء .. قلبى منقبض .. لا بدَّ أن أذهب إليه .

— يا بنت الحلال اهدئى واستعيذى بالله .. الصباح رباح .

— كلمة واحدة .. إما أن تأتى معى .. أو أذهب وحدى . قلبى يحدثنى أن أبى فى محنة . اللهم احفظه من كل سوء ، يارب .!!

كان الرجل يعانى سكرات الموت . ذهب فاروق ليحضر سمير . وبقيت وحدها مع الأب .. دموعها تتساقط بغزارة .. حملته على صدرها .. وأخذت تناجيه :

— يا حبيبى يا بابا .. ردّ علىّ يا بابا .. لمن تتركنا وتذهب يا حبيبى ؟!

العينان غاربتان لا تكادان تريان شيئا . العرق البارد يتصبب من الجبين . القلب يدق دقات بطيئة .

— سـ .. سمـ .. سميرة .

— نعم يا بابا .

— حافظى على بيتك ... وأطيعى زوجك .

أخذت تجفف عرقه ودموعه : حاضر يا بابا ..

— سميرة .. خلّى بالك من إخوتك ... أين سمير ؟

— دقائق ويصل .. استرح أنت يا حبيبى .

سكت الرجل برهة ، وهو ينتفض .. ويناجى ربه بصوت متقطع : اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى .. اللهم احم أبنائى من كل شر .. اللهم اهد سامى واصرف عنه كيد الشيطان .. يارب ...!!

دخل فاروق وسمير وزوجته سلوى ، قلوبهم مضطربة وعيونهم زائغة . جرى سمير نحوه باكيا :

ــ بابا .. يا حبيبى يا بابا .. رد علىّ يا بابا .. ألف سلامة يا بابا .

طفق الجميع يبكون ، وهم يشاهدون الرجل يحتضر . صوت مرتعش ينادى :

ــ سـ .. سمـ .. سمير ..

جرى نحو أبيه باكيا ، وهو يقبّل يده :

ــ نعم يا بابا .. نعم يا حبيبى ..

ــ أنت الوصى على إخوتك .. وصيتك سميرة ... وسامى . سامى مسكين .. عقّلْه بالحُب . أين سامى .. سامى .. سا .. مى ..!!

مرَّ فاروق وسمير على بيت سامى ، لكنهما لم يجداه فى البيت . أين ذهب ؟ لا أحد يدرى .. ولا حتى زوجته ..!!

لحظة أليمة قاسية أن تشهد أعز الناس إليك وهو يحتضر . الموت عندما تراه رأى العين ، تحس أنه شىء فظيع .. مخيف .. غامض .. مرعب .. مجهول .!!

طلب الحاج سيد شربة ماء ، قدمتها سلوى ، وأخذت سميرة تسقى أباها بهدوء . تناول رشفة .. وقد ظهر أمامه طيف أم سمير ، تلبس ثوبا أبيض ، كأنما تناديه .. وتقول له : لا تحزنْ ، فأنا فى انتظارك .. أنا فى انتظارك ..!!

بكى الأولاد .. وهم يتبادلون نظرات صمت مر .. رهيب . سمعوا صوته ، يقول فى ضعف :

ــ أشهد ألا إلـٰه .. إلا الله .. وأشهد .. أن .. محمدا .. رسول الله .

هدأ الجسد المتعب ، وبلغت الروح الحلقوم .. ودعت دنيا الباطل ، لتذهب إلى دار الحق .

ــ بابا .. يا حبيبى .. لم تتركنا يا بابا .. يا بابا ؟!

ــ ياد هويتى بى .. يا مصيبتى بى .

تقدم فاروق فى هدوء ، وجذب الملاءة البيضاء على جثة الميت المسجى ، وهو يقول :

ــ « إنا لله وإنا إليه راجعون . »

***

دخل سمير إلى غرفة وكيل النيابة يجرّ قدميه المجهدتين ، وقد بدا على وجهه أثر الإرهاق والحزن بشكل واضح . حين رآه وقف مندهشا :

ــ أهلا يا دكتور سمير لقد تأخرت كثيرا . كدتُ أيأس من الانتظار ، وأحوّل البلاغ إلى المحكمة .

ــ اعذرنى يا أستاذ أسامة .

ــ سوف أعذرك ، إذا كنت قد ساعدتنى على حل القضية .

ــ القضية حُلت .

ــ سامى وافق على سحب البلاغ ؟!

ــ أبى مات ..!

صمت الوكيل برهة . نظر إليه فى إشفاق وحزن . تعجب لأنه لم يلتفت إلى هيئته ، لو أنعم النظر لقرأ فى وجهه معنى الخبر ، الذى سمعه .

ــ البقية فى حياتك .

بكى فى صمت ونزلت دموعه .. كيف يبكى وهو رجل ؟! أحس فجأة بتيار جارف من تأنيب الضمير .. تخيّل نفسه شجرة لبلاب تسلقت على أغصان شجرة توت عتيقة . أعطاه أبوه كل شيء .. و لم يحاول فى يوم من الأيام أن يردّ الجميل ، حتى بكلمة شكر .!! كيف كان قاسى القلب مع أبيه إلى هذه الدرجة ؟! سامى .. ولد أحمق ومستهتر وشقى . إذا كان المجنون يمكن علاجه أفلا يمكن علاج المنحرف ؟! تذكر مثلاً كانت تقوله أمه « الشجرة التى لا تظل أهلها تستحق قطعها » . تعجب كيف كانت أمه رحمها الله ، تدرك بالحس الصادق حكما كثيرة ، لم يفطن إليها إلا عندما وقعت المصيبة . الفائدة الكبرى للمصائب أنها توقظ فينا الإحساس بالمسئولية ومراجعة النفس .

— هل كان المرحوم والدك مريضا ؟

— أبدا .. لقد توفى فجأة .

— كيف ؟

— فعلة سامى قتلته قهرا ...!!

— أنت رجل متعلم ، لا تقل هذا .. الأعمار بيد الله .

— لكن الله جعل لكى شيء سببا .. هل تعرف ؟

— ماذا ؟

— لقد ذهب سامى إلى البيت وهدده أيضا . يبدو أن الوالد رحمه الله ، قد عزّتْ عليه نفسه ، فمات كمدا بعد يومين ...!!

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـــ تصور يا أستاذ أن أبى خاف على سامى وهو ميت .. وسامى لم يخف على أبيه وهو حى !!

ـــ كيف ؟

ـــ كتب له وحده نصف التركة ، وجعل النصف الباقى لى أنا وأختى سميرة .

ـــ حكاية غريبة .. ومفارقة عجيبة .!!

ـــ هذه هى المأساة التى تدمر حياتى ، وتجعلنى أعيد النظر فى كل شىء .

ـــ وهل ستطلع سامى على الوصية ؟

ـــ لقد عرفها .. لكنه لم يتأثر بما حدث كثيرا .

ـــ البركة فيك أنت عالم اجتماع .

ـــ تلك هى مشكلتى .

ـــ قواك الله ، وأرجو أن تعدنى صديقًا لك منذ اليوم .

ودعه وخرج من المحكمة . سار وسط الزحام ، يمعن النظر فى حركة الشارع الصاخبة ، لعله يجد صدى لأحزان قلبه الجريح[1] .

---

(١) الدوحة ، نوفمبر ١٩٨٧ .

ـــ نُشرتْ فى مجلة « الأزمنة » ـــ نيقُوسيا (قبرص) ، العدد (٣/١٤) يناير / فبراير ١٩٨٩ .

حكاية الليل والطريق

ـــ شالوم عليخم .

ـــ شالوم مدموازيل .

وقفت سيارة البيجو الزرقاء بفرملة مفاجئة . نزلت منها فتاة رشيقة أنيقة ، حيت الجندى الإسرائيلى بابتسامة . فتحت الغطاء الأمامى . طلبت بإشارة من يدها أن ينظر معها ليبحثا عن مكان العطل . كان زائغ البصر لا يدرى أينظر إلى المحرك .. أم إلى أنوثتها الفاتنة .؟ رائحة عطر نفّاذ تملأ فتحتىْ أنفه الواسعتين . ثبت البندقية على كتفه ، وهو يتعمد لمس يديها الرقيقتين . عذراء جميلة ما الذى جاء بها إلى هنا خارج حدود صيدا ؟ هذه غزال عربى ساقه الله إليك يا داود . تذكر العربيات اللاتى كان يراهن فى شوارع بغداد والكوفة والبصرة . أين أيام العراق .. أيام الطفولة واللهو من سنوات إسرائيل التى كلها حرب .. وقتال .؟ نسى العراق الذى وُلد فيه .. وتناسى عدد من قتل من العرب ، تناسى أشياء كثيرة فعلها من أجل العودة إلى أرض الميعاد ، وتذكر شيئا واحدا ، أنه رجل أمام غزال شارد . ماذا لو نسى كل شىء .. كل شىء ، وحاول أن يقضى وقتا سعيدا فى لحظة الغروب الجميلة . القائد حاييم حذره ــ ألا يتهاون فى نوبة الخدمة « إياك أن تأمن لأى فرد من أبناء الجنوب اللبنانى ، لقد فعلنا بهم الكثير .. وهم مصرّون على طردنا .. إياك » . لكن القائد قد يكون سعيدا الآن بين أحضان زوجته المكتنزة وأطفاله الصغار ، أو يتحدّث عن بطولات

الجيش فى الكنيست ، وينتزع التصفيق والنياشين ، ونحن هنا .. ندفع الثمن . كل هذا يهون من أجل أرض الميعاد .

ـــ ألا تستطيع أن تساعدنى يا ....

ـــ داود .. داود يا عزيزتى ، أنا عربى مثلك .

كان يتكلم العربية بطلاقة ، لكن صوته يضيع بين لحية كثيفة .

ـــ اسمى نورة .. لقد ضللت الطريق ، وبعدتُ عن صيدا . لا أستطيع العودة قبل إصلاح المحرك .

نظر إليها ، وهو يتأمل قوامها الفاتن ، ووجهها الخمرى البذرى ، وشفتيها الرقيقتين الرشيقتين وشعرها المستشزر الثائر وعينيها الصافيتيْن .. ورقبتها المستطيلة ، وقرطا أحمر يتدلى من أذنيها . هذه الفتاة ذات الفستان الأخضر يبدو أنها كانت على موعد غرامى . كيف تحب صبية فى السادسة عشر . أوه .. لقد تغير الزمن يا داود . الحب نداء القلب . الحب رغبة متمردة .. لا تعرف السن أو الجنس .. أوه ..!!

نظر إليها فى خبث ، وهو يتأمل فستانها ، الذى يعلو فوق الركبة ، وقال :

ـــ لا أفهم فى ميكانيكا السيارات يا عزيزتى .. ماذا لو تركتِ السيارة ، وانتظرت معى حتى تحضر الدورية لتغيير نوبة الحراسة .

ـــ متى ؟

ألقت بالكلمة إليه ، وهى تتصنّع الابتسام .

ـــ بعد أربع ساعات تقريبا .

ــ لا .. هذا كثير .. كثير جدا .. يا داود . أمى سوف تنشغل علىّ لا بد من حل ؟

ودعت الشمسُ الأفقَ ، وبدت تباشير الظلام . قال لنفسه : لن يأتى الظلام ومعى نوره .

جذبته من شطحاته : ما الحل ، ألا يوجد محل قريب ؟

ــ أقرب شيء إلى هنا معسكرنا ، وهو على بعد خمسين كيلو متر .

ــ لا أظن السيارة تستطيع السير كل هذه المسافة ، سأحاول أنا مضطرة .. ساعدنى ، أرجوك ، أمى .. الليل قادم .

ــ يبدو أنك فتاة طيبة .

ــ شكرا .

ــ وجميلة أيضا يا منيرة .

ــ قلت لك اسمى نورة .

ــ لا بأس ، سوف أساعدك . هيَّا بنا . اتركى لى القيادة .

ــ لا أظنك تعرف أسرار سيارتى ، خاصة وهى شبه معطلة . لا أريد أن أتعبك . يكفى أن تدلنى على المعسكر . يمكن أن أذهب وحدى ..

احتار لحظة . ماذا لو تركها تذهب وحدها . وماذا لو غاب ساعة عن مكان الحراسة .؟ لن يحدث شيء . لقد ضربنا العرب فى كل مكان .. من يجرؤ على أن يبدأنا بالعدوان .. خاصة فى هذا الليل .؟ لا بأس .. قليل من الحب يجدد الحياة .!!

ــ من حسن حظك أن التقيت بى ، نحن اليهود الشرقيّين أطيب قلبا .

ــ شكرًا يا عزيزى داود .

ــ لقد ولدتُ فى العراق ، كلما سمعت أخبار الحرب اللعينة بين العراق وإيران أحزن جدا .

نظرت نظرة لا تخلو من ريبة . لكن هذه ليست ساعة للريبة أو الندم . الجروح كثيرة .. والندم لا يفيد .

ــ أنا فتاة طيبة .. إياك أن تخدعنى .. السيارة لا تستطيع السير طويلا على هذه الحالة .

مضت العربة فى الظلام ، ونورة تفتش فى ذاكرتها الحزينة عن صورة باكية لأمها .. وخريطة ممزقة لأهلها ، خشيت أن تفضحها دموعها . حبست انفعالاتها ، وهى تتذكر رغبة أبيها فى أن تكون طالبة فى الجامعة .

ــ لن أذهب إلى المدرسة يا أمى .

ــ كيف يا نورة .. وصية أبيك .

ــ ما أفعله من أجل روح أبى .. ومن أجلك أيضا يا أمى .

ــ أنت فتاة صغيرة ..المدرسة .. و .. الجامعة ...

ــ كل هذا لا يهم . اليهود حين يدمرون لا يبالون على من تسقط قذائفهم . جبناء .. أنذال .. قتلوا أبى .. وعمى .. وخطيبى . دمروا الزرع الأخضر ، حتى الشجرة التى كنت ألعب عندها .

ــ عنيدة مثل أبيك يا بنت يوسف محيدلى .

نورة صبية ولدت فى الزمن الخطأ ، عمرها ستة عشر ربيعا . كل الطرق أمامها محفوفة بالأشواك . ذات قد مثل الرمح ، وعينين حادتى

الرؤية مثل زرقاء اليمامة ، كأنما تبحثان عن شيء مجهول . لا تحب الكلام كثيرا ، فهي تفضل لغة العمل .. وحديث البارود .

ــ لماذا تسرعين يا عزيزتى ؟

نظر إليها فى مودّة ، وهى تتلمس طريقها وسط الظلام . آثار معارك طائشة تبدو على الجانبين . الأرض خراب ، ولا أحد هناك .

ــ لماذا تركتَ العراق وجئت إلى فلسطين ؟

ــ تقصدين إلى أرض الميعاد .. الحديثُ عن أرض الميعاد يا عزيزتى ، حديث له علاقة بالسياسة والحرب ، وأنتِ فتاة جميلة ....

ــ لكن الفتاة عندكم تحارب وتقتل .!

ــ أوه .. حرب .. حرب .. كل شيء هنا يذكرنى بالحرب . دعى هذا الحديث الأسود .. وتعالى نتكلم عن الحب .

داود إسحق من مواليد العراق . قضى هناك طفولة سعيدة . كانت له هناك دار وضيّعة نخيل شمال البصرة . جاء إلى فلسطين سنة ١٩٥١ ، منذ ذلك التاريخ لم يخلع ملابس الحرب ، أصبح يعتقد أن الإنسان يعيش ليحارب . هذه الأرض كلها مملكة اسرائيل .. دولة اسرائيل يجب أن تمتد .. وأن يعود كل اليهود إلى أرض الميعاد .

ــ لم لا تحدثنى عن أسرتك .. أليس لك أطفال وزوجة ؟

ــ نعم يا عزيزتى نورة .. عندى طفلان .. وزوجة طيبة ، لكنى لا أراهم إلا فى الإجازات .

أخذ يثرثر عن أطفاله .. وزوجته المدرسة فى القدس . بدأ يضع يده

على كتفها ، لم تبال .. تشاغلت بالسواقة .. تذكرت مثلا كان أبوها يردده « من يضع حبلا فى رقبته فسوف يجد ألفًا يجرونه . » لا يا أبى لن يجرنى أحد . سوف أهرب من حياة بلا جدوى .. ومن ليل بلا نهار .. نعم يا أبى أنا فى الطريق إليك .!!

بدرتْ منها التفاتة إليه ، وهو يثرثر ، بدا لها ذئبا مفترسا . هكذا أنتم يا من تدعون أنكم شعب الله المختار .. كلكم ذئاب وأفاع . حيثما تحلون تحل اللعنة والظلام والخراب . أورشليم يا مدينة السلام .. أين السلام .. أين الأمان . أورشليم يا قاتلة الأنبياء .. والخير والسلام . « أفكلما جاءكم رسول بمالا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذّبتم ، وفريقا تقتلون . » ؟!

بدأ الظلام يحيط بمنطقة الجنوب الجبلية . الظلام كثيف ، كل هذا الظلام ظلم .. كل هذا الظلام اليهود . ازداد إحساس نورة بالظلم والظلام . تغيرت سحنات الوجه الملائكى . كادت أسنانها تصطك ويداها ترتعشان . حاولت أن تتماسك ، أحست أنها وحيدة فى هذا الكون الليل ، تناست كل شىء وتذكرت المهمة التى جاءت من أجلها . أخذت تضغط على دوّاسة البنزين . العربة تطير بسرعة .

ـــ العواقب غير مأمونة إذا سرت بهذه السرعة .

ـــ قلت لك إنى متعجلة .

ـــ عظيم .. هذه أنوار المعسكر قد ظهرت . لم لا تقفين حتى نستريح قليلا ؟! مد يده اليسرى يتحسس وجهها وشعرها .

— أبعد يدك أيها الوغد .

— هل تضايقت .؟

نظرت إليه بغيظ .. بينما استطرد : سوف أغتصبك ، لا داعى للمقاومة أيتها العذراء الجميلة .

سالومى سلمت رأس يوحنا للأعداء ، وسوف أسلم أشلاءك للدود.! بدأت أنوار المعسكر تظهر شيئا .. فشيئا . الآن لم أعد فى حاجة إليك أيها النذل . ازدادت إصرارا . ها قد وصلت . بدأ يحس بالقلق . رفع يده من على كتفها ، وأراد أن يوقفها بالقوة .

— قلت لك قفى وإلا ..

فى لحظة أخرج مسدسه وصوبه ناحية الرأس الجميل،أضواء المعسكر تقترب ، وبعض ذئاب تتحرك أمامه .

— برصاصة واحدة أسيل دمك .. قفى يا نورة ، لا تكونى متهوّرة .

— قلت لك لقد تأخرت ، لا بد ...

— لا بد أن تقفى .

تأزم الموقف ، وبدأ يرى فى وجهها شيئا غير عادى .. أدرك أنها تبيّت نيةَ شر . ماذا لو كانت تقصد ...؟ هذه الفتاة العربية الصغيرة خدعتك يا داود . ماذا تقول للقائد حاييم . لا شىء يقف أمام إسرائيلى . وضع يده على الزناد :

— نورة .. لقد أنذرتك . لآخر مرة أقول قفى الآن فورا .

ازدادت إصرارا على مواصلة السير . حاول أن يمسك عجلة القيادة

وأن يُوقف السيارة . ظلت تدفعه بقوة . انطلقتْ رصاصة من الغدارة . مرت ملتهبة بجوار خدها الأيمن . سالت بعض دماء من وجهها .. الدماء بدأت تسيل على الرقبة والصدر .. اختلطت الدماء بالدموع ، وهى مصرة . أحست بلذة ، وهى تحاول قضم أحد أصابعه . صارت على قيد خطوات من المعسكر . ازداد صياحه .. أخذ يطلق الرصاص ، والدماء بغزارة تسيل .. لا تدرى من أين ؟ يداها تمسكان عجلة القيادة بإصرار . أطلق رصاصة أخرى ناحية قلبها الشاب . لم تعد ترى أو تسمع شيئا . ارتطمت العربة بالمعسكر . فى لحظة دوت انفجارات هائلة وخرجت ألسنة النيران إلى كل مكان من السيارة ، اصطدمت النيران بالجنود والحوائط ومخزن الذخيرة . جنود تسقط .. أعمدة تتهاوى .. نيران تشتعل ..دوى انفجارات متلاحقة .. تحول المعسكر إلى ساحة نيران .. ملتهبة .. مدمرة .. فى كل مكان . شلت أضواء النيران ظلام الليل ، تناثرت أشلاءُ نورة على الطريق[١] .

---

(١) ٢٨ أبريل ١٩٨٥ .

ـــ جريدة « الخليج اليوم » ـــ قطر، فى ١٥ فبراير ١٩٨٧ .

الرقص .. فوق بحار الدم

تأمل شجرة أرز عتيقة ، تقف ثابتة عند الربوة ، بينما ظلام من الشمال والجنوب والشرق والغرب يزحف . الليل قادم . حاول أن يتجاوز مشارف الواقع والظلام ، وأن يرنو هناك بعيدا .. بعيدا .. إلى حيث .. مسقط رأسه السليب . كره العُجز والأيام السوداء . صار رجلا مع إيقاف التنفيذ . الرجال الحقيقيون .. القادرون الفاعلون .. خرجوا من بيروت في ليلة مظلمة . ابتلعهم البحر الكبير ، وسارتْ بهم السفن في ليل عاصف . آه يا زمان الذل ..!! لم تكن لديه رغبة في العودة . ماذا تصنع يا فواز بين الأرامل والثكالي والأطفال .؟ ساق واحدة تذكره بآلام لا تحصى . ظل طوال عمره يحلم .. يحلم بالعودة إلى الوطن السليب . معسكر صابرا هو الحقيقة الوحيدة في حياته الآن . ضاعتْ في الظلام كل المعالم حواليه حتى بيروت . لم يعد هناك ضوء . تحسس فواز جروحا كثيرة في جسده . حارب من أجل الحلم كثيرا في فلسطين وفي الضفة . عرف طعم الموت .. لا ينسى ذلك اليوم الرهيب من أيلول الأسود سنة ١٩٧٠ ، طارت ساقه وسال الدم ..!!

بعدها أفاق حيث هو الآن في ملجأ مع العجزة . كان مُعلمًا يدرس التاريخ ، لكنه آثر أن يعلم التاريخ بالبندقية لا بالطباشير . احتضن شجرة الأرز . أخذ يبكي . تذكر أمه وأيلول الأسود والناصرة . كل الأيام صارت أيلول .. أيلول أسود . منذ خمس وأربعين سنة أصبح رجلا ـــ

وهو فى العاشرة ـــ بعد مقتل أبيه .. يومها كان يبكى .. يبكى ، والأم تمسح أحزانه قائلة :

ـــ الرجال لا يبكون يا فواز .

ـــ هدرًا لن يضيع دم أبى .!

سمع طلقات كثيفة متتالية . لِمَ الرصاص وقد خرج المحاربون ..؟ اللصوص يسوّون حساباتهم .. استراح لهذا الخاطر. مازال وجه أمه يشع إصرارا وتفاؤلا يملأ الأفق حواليه .

ـــ أولادًا كثيرين لا بد أن تلد زوجتك يا فواز .

ـــ بعد أن يتعلم إخوتى وتتزوج أخواتى .

ـــ قل يارب .

الناصرة تُرى كيف تكون الآن ؟ تخيل السيد المسيح من كوة بعيدة .. بعيدة ، على أرض الناصرة أخذ بيلاطس يسوع وجلده . ضفر العسكر إكليلا من الشوك ووضعوه على رأسه وألبسوه ثوبا أرجوانيا ، وكانوا يلطمونه . فقال لهم بيلاطس هو ذا الإنسان . فلما رآه الكهنة والخدام صرخوا قائلين : اصلبه اصلبه . قال بيلاطس : خذوه انتم واقتلوه ، لأنى لا أجد فيه علة . أجابه اليهود : لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت ، لأنه جعل نفسه ابن الله .!!

اقترب موعد العشاء .. لكن لا آذان .. بيروت لم يعد يسمع فيها صوت المساجد أو الكنائس . صوت واحد تعرفه بيروت جيدا .

تذكر أن له إخوة .. إخوة عديدين .. كثيرين فى كل مكان من بلاد

العرب .. يبدو أنهم نسوه أو تناسوه ، حتى رسالة بالبريد لا تصل . لا نجم هناك فى السماء . برودة شديدة سرت فى عظامه المتآكلة .

يا ألله .. لم يعد أحد يرى .. يسمع .. يفهم ..!! يا ألله لم لا تفعل شيئا .. الدنيا كلها على .. يارب لم بترت ساق .؟ انفجارات وحشية قطعتْ خيوط المناجاة . ارتمى بين صخور الربوة . أحس بعطش .. عطش شديد . تذكر نهر الأردن . الذكرى لم تعد تنفع .. لم يعد هنـاك مؤمنون . أخذ يبحث عن العكاز الخشبى وسط هدير البارود .. طيخ طاخ ، بم بم ، طاخ طيخ ، بم بم . تداخل الليل والبرد والبارود ، وضاع العكاز . ألف الظلام فقد عاش فيه كثيرا .. زحف يبحث عن العكاز .. الأمل الوحيد . زحف على ذراعيه وصدره . انفجار أول .. ثان .. ثالث .. رابع . صوت بومة يأتى من بعيد .. غيق .. غاق .. غوق . الأرض تمطر نارا حمراء .. زرقاء .. صابرا .. العكاز .. الخوف .. الغضب . تحسس الأرض حواليه ، كاد يمسك طرف العكاز ، بينما صخرة تهوى به دون أن يقدر .. وقع فى السفح ، وجهه ينزف .. حلاوة الروح جعلته يتماسك . اسودَّ الكون . وقع فى ألف نكبة ونكبة ، يومها قادرا على الحركة كان ، أما اليوم فهو بساقٍ واحدة ، حتى العكاز تاه .. تاه فى الظلام .

حاول أن يسترد أنفاسا ضائعة . جلس وسط ليل بلا ضفاف . صوت طلقات متقطعة تأتى من ناحية المعسكر . ضاع العمر يا فواز ، ليس ثمة أمل حتى فى موت مريح . يسوع لو تصدى للظلم لقطع الشجرة . الشجرة كبرت ، حتى ظلها صارتْ له مخالب وأنياب . بعد هذا تقول

يا يسوع من ضربك على خدك الأيسر .. لا .. لا يا سيدى العين بعينين . تذكر أنه لم يتناول طعاما منذ أمس . تموت قدمه من الانتظار حتى يعطيه رجال الغوث كسرات جافة وعلبة جبن فاسدة . تمنى شربة ماء . تذكر نهر الأردن . صاح بصوت ضاع وسط صوت البارود : يا ألله .. لم نسيتنى فى هذا الظلام ؟ إياك أعبد فهل إياى تذكر ؟ يارب ساعدنى على أن أمحو ليل الطغاة . أحس بانقباض شديد . أخذ يزحف على عجيزة جافة ويدين ناحلتين . المخيمات بعيدة وصوت البارود يزأر . حاول أن يمشى على ساقه الوحيدة . شعر بالخوف على زوجة أخيه وعمته وبنات بعض الجيران . المعسكر كله نساء وأطفال ورجال مكسورون .

ـــ مسئوليتك أثقل يا فواز .

ـــ لا تخف عليهم .. أنا محارب قديم .

تذكر يوم رحيل المناضلين . مثل يوم دير ياسين وتل الزعتر وأيلول الأسود كان يوم الوداع الحزين . فى العيون دموع حارة وعلى الوجوه حيرة سرمدية . لم يكن يدرى هل هذه ساعة للحزن أم للفرح ، لحظة ميلاد أم موت ..؟

أصوات غناء .. بكاء .. طلقات نارية .. ألوان قوس قزح تجمعت كلها فى الأفق البعيد ، كان يبكى وهو يودع أخاه الأصغر .

ـــ أتبكى يا فواز ؟

ـــ من يضمن يا جهاد ؟

ـــ أنت أبى وأستاذى فى النضال .

— لقد كفرتُ .. كفرت بكل شىء .

— ما هكذا علمتنا يا زعيم .!

استرد قبسًا من رُوح مناضل قديم . أحس أن قدميه تغوصان فى مستنقع ملىء بالصديد والدم ، وتل من الجماجم والجثث . لا فائدة . السمك لا يعيش بجوار الحيتان .

— كن واثقا يا زعيم .

— فيم ؟

— فى الله .. وفى المستقبل .

تحركت شفتاه ، أراد أن يقول : أكاد أشك — لكنه تذكر أنها لحظة وداع . طفلة صغيرة اقتربت :

— أنت مسافر يا بابا ؟

حملها جهاد فى لهفة وهو يخفى دموعا محتبسة .

— سنلتقى قريبا يا سلمى .

— أين ؟

عبر عيون يملؤها الدمع والدم تخيل فواز البيت الأبيض الأمريكى ، قصر الكرملين فى موسكو ، قوس النصر فى باريس ، ميدان بيكاديلى فى لندن ، الكعبة المشرفة ، مقر البابا بالفاتيكان ، المسجد الأقصى . لا أحد يستطيع أن يُعيد البسمة إلى وجه سلمى الحزين ...!!

أحس أنه محاصر من كل مكان . فى التاريخ القديم كان طارق بن زياد يقول لجنوده : العدو أمامكم والبحر خلفكم ، فى التاريخ الحديث : العدو

فى كل مكان . دموع لا تجف من عينى سلمى الصغيرة وهى ترفع إصبعيها علامة النصر . مطارق من حديد تطرق نافوخه . الخوف .. البرد .... البارود . جرب كل طرق السير من أجل أن يعود .. لو عرف الغيْب ما خرج . لو كان جهاد هنا لبحث عنه فى كل مكان وساعده : صادفته بركة ماء ، لم يتبين عمقها ، أصر على أن يعبر .. وأنْ يعود . جروح الجسد لا تضعف إرادة صلبة . حاول أن يهم بالوقوف على قدمه الوحيدة . المحاولة صعبة بدون عكاز . الرغبة فى الحياة تنمو ... وشجرات الخوف والقلق تبدو فى كل اتجاه . أخذ يقفز .. يقفز . وقع فى حفرة . غطاه الماء والطين . دخل الماء العكر فمه وأنفه وأذنيه وغطى شاربه ولحيته . صوت البارود يُحدث شرخا فى جدران الكون . لا أحد يدرك هول الفاجعة . الظلام شديد . الليل عنيد . جرب أن يمشى على يديه وساقه .. أخذ يحاول .. ويحاول . أخيرًا اجتاز البركة . قعد يسترد أنفاسه المشردة . طعم الطين يملأ فمه . رائحة العطن تسرى من كل ملابسه . دماء تنزف من أعضاء جسد عجوز . تمنى أن يموت . الموت علاج لما لا يقدر غليه الإنسان . تذكر سلمى . جهاد الآن فى البحر وسلمى وحدها .. ترى هل هذا البارود قريب منها ؟ لم يعد يعرف إجابة لأى شىء فى هذه الليل المخيف . المهم أن يمشى .. لم يعد يدرى هل يتحرك إلى خلف أم إلى قدام ؟! صوت البارود أمسى قريبا منه . شىء ما يحدّثه أن البارود عند المخيمات ؛ حيث الأرامل والثكالى والأطفال والرجال المكسورون . هناك ناس نسيهم الناس ، لكنهم رغم الجروح صامدون ،

عندهم أمل . بدت له شجرة . أخذ يحاول الاقتراب منها . عنيدًا حاول أن يصعد . مرات ومرات وهو يحاول .. ويحاول . أخيرا أخذ فرعا ومضى يستند عليه . أخذ يسير بطيئا .. بطيئا . البارود بدأ يشم رائحته . الظلام كثيف .. الليل مخيف . ملابسه المبتلة ضاعفت من إحساسه بالخوف والبرد . كان يفكر فى سلمى . طوال عمره ما فكر فى نفسه قط . لقد برَّ بوعده لأمه . علم إخوته وزوَّج أخواته . حين أدى الرسالة تطوع فى جيش التحرير . لكى يعيش الصغير يجب أن يدْفع الكبير الحساب .. وما يزال .

اصطدم وسط الظلام بكتلة حديد صلبة عليها نجمة داود . داود العظيم .. صاحب المزامير أصبح رمزًا للشر والعدوان . دبابة اسرائيلية .. ما تفعل هنا فى مخيم صابرا .؟ بدا قزما ضئيلا بجوار ماكينة الموت العملاقة ، تتربع فى ثقة على التل . لم يستطع أن يعرف سر الماكينة الرهيبة . لم هى هنا .. بالقرب من الأرامل والأطفال والمكسورين ؟ ترى هل جاء الثعلبُ يحرس عش الحمام.؟! أحس كأنما صراخ سلمى يأتى من كل مكان . تحاشى الدبابة وحاول أن يختصر الطريق . صوت البارود صار حقيقة . حركات مريبة . عفاريت سوداء .. زرقاء .. حمراء .. صفراء .. تسير فى كل اتجاه .. فى كل مكان عفاريت .. دبابات .. مدافع .. طلقات البارود .. رائحة البارود .. طعم البارود .. دخان البارود .. بارود البارود .. يخرج عاليا ومكتوما . أصواتُ استغاثة تصل ما بين السماء والأرض .. لا مغيث .. لا مغيث . الليل تمدد .. الألمُ تجدد .. الكون تجمد . أنات مكتومة فى

خيمة قريبة .. أصوات متقطعة .

حاول أن يقترب . أصواتُ دماء تنزف .. حشرجات الموت . أكوام حارة من الجثث . اصطدم بحبل . حاول أن يخلص قدمه .. لكن الحبل كان شديدا يربط كل القتلى .. القتلى من كل صنف .. ذبح .. قتل .. خنق . المجد للشيطان .. هولاكو جاء من جديد . العفاريت اختلفوا فى كل شىء واتحدوا على قتل الأبرياء . حركات شيطانية هنا .. وهناك . أصوات متقطعة .. موت بالجملة .. بكل الأشكال . وافلسطيناه .. وافلسطيناه ..!!

أخذ يزحف حتى لا يراه أحد . قتلى .. قتلى .. قتلى .. فى كل مكان ، مازالت أجسادهم حارة ودماؤهم تسيل .. تسيل . قابيل متى يتوقف جيشان الدم ؟ دم .. دم ... لكن صراخ سلمى ما زال يرن فى أذنيه . اصطدم بجثة ما زال فيها رمق : يا عرب .. يا عالم . ظل يعوم أو يزحف لا يدرى ونجمة داود تختال فوق آلة جهنمية . العفاريت ما زالت تجرى .. تزرع الموت والخوف . الظلام شديد .. طيخ طاخ .. تيك تاك .. بم بم .. النار .. الدخان .. عويل .. صراخ .. مذابح جماعية .

المسيح تحمل الآلام حتى يفدى البشرية .. أبناء وطنه يقدمون اليوم نفس الموعظة . لا جديد .. لا قديم .. لا أمل .. الكل باطل . الحقيقة الوحيدة أن تكون قويا . أحس أن قدرته على المقاومة قد تلاشت . سقط فاقد الحركة بين جثث لا يقل عنها قلة حيلة . صوت سلمى .. هذه هى الخيمة .. صراخ يأتى من الداخل . واتته قوة لم يدر من أين ؟ خاض فى

بحار الجثث وتلال الدم . العفاريت تجرى .. وتجرى .. تزرع الموت .. تقضى على كل الأشياء والأحياء . صوت البارود .. طيخ طاخ .. تيك تاك . أطل من طاقة . داخل الخيمة عسكرى أزرق .. وعسكرى أسود .. يقتلون .. يذبحون . بقيت امرأة وطفلة فى الثانية عشرة .. حاول العسكرى الأزرق والأسود أن يغتصباهما فى وقت واحد . قاومت الأم العسكرى الأسود . مد البندقية وبقر بطنها بالسنكى وخرج يصيح صيحة نصر . بقى العسكرى الأزرق . أخذ يعرى الفتاة قطعة قطعة بالسنكى .. السلاح الأبيض يلامس جسد الطفلة . الخوف جمد أعضاءها . صارت شبه عريانة .. الوغد يتحسس جسدها البارد . مد يده حتى يكشف موضع العفة . استجمع فواز كل قوى الغضب داخله . ضرب العسكرى الأزرق . جاءت الضربة على يديه . وقعت البندقية . أخذ الوغد يركله ويضربه .. لم تعد لديه قدرة على المقاومة . فواز يجود بأنفاسه الأخيرة .. خشرجات الموت تضيع وسط أصوات البارود .. العسكرى الأزرق .. يرقص فى الظلام .

سلمى تحاول أن تحتمى تحت تل من جُثث الضحايا[1] ...

---

(١) كتبت فى ١٩ سبتمبر ١٩٨٢ ونشرت فى مجلة « الدوحة » ـ قطر العدد (٨٥) ـ يناير ١٩٨٣ ، وجريدة « الشرق » ـ قطر، فى ٢٠ سبتمبر ١٩٨٨ .

أنت شنو ...؟!

لا يدرى كيف خرج من دار خالته ملكة الدار . ترك الحارة . مضى وحيدا . مرَّ عبر بوابة عبد القيوم . ضريح المهدى يضفى على أم درمان النائمة سِحْرا خاصا . يسير وحده ضائعا فى شارع كبير . أحس أنه يحمل أحزان النائمين . الكتمة والعتمة تحيطان به . وصل إلى الطوابى التى بناها المهدى فى حضن النيل ليقاتل الإنجليز من خلفها . عندما كان طفلا زار هذه المنطقة أكثر من مرة . ليت أيام الطفولة تعود .؟ أبوه كان مرتبطا بالضريح وبالطوابى :

ــ جدك الشيخ الطيب استشهد هنا يا بشير . لم تخفه مدافع الإنجليز . لم يستسلم . دماؤه جرت فى مياه النيل .

سار بحذاء شط المقرن ، حيث يلتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، وتلتقى أجزاء العاصمة المثلثة : أم درمان والخرطوم بحرى وغربى . الليل لم يزل صبيا بعد ، لكن الناس .. نيام.! هذه الليلة ليست مثل أيام يناير المعتادة . الجو رطب خانق . بدا تائها فى الضوء الخافت كما تاهت معالم جزيرة توتى ، توتى ياتوتى لماذا أنت تائهة فى الظلام.؟ النيل الأزرق .. ساكت .. صامت مثلك ياتوتى ..!! الضفة الأخرى تبدو صلعاء لا زرع .. لا حركة .. لا كلام . الناس نيام .. نيام .! وقف يتأمل طيفه الغريق فى مياه النيل الأزرق .. وهو ليس بأزرق .. كلام .. كلام.. نيام.. نيام.؟ تحسس موضع قدميه برفق، وقد غاب القمر من السماء.

الليلة تعمد أن يزور بيت الخالة . يعرف جيدا أن بابكر الذى تعلل بزيارته غير موجود . قابلتهُ الخالة فرحة . المرأة تعرف بالفطرة أشياء كثيرة . شيء ما أربكها ، لم يدر فى البداية ما هو ..؟! ظلت تخرج من حجرة إلى أخرى ،كأنما تبحث عن شيء مفقود تفعله من أجل الزائر العزيز . نادت بصوت عال :

ـــ عزة .. تعالى يا عزة .. بشير هنا .

أنارت عزة حوشَ الدار كما يضيء الدرويش ساحة المريدين . رآها تقبل متشحة بثوبها الأبيض . عادت إليه الروح المغتربة ، لكن القطب أشاح بوجهه . يا لك من قاسية أيتها المحبوبة . أعلم أنك تتعجلين الخطبة ، وأنا كذلك وكرامة الشيخ المهدى . لكن جنيهات الوظيفة مستها روح شريرة .

وصلت خيوط دخان الفحم حيث تعد الخالة الشاى .. الدخان جعله يتخيل نفسه فى عالم أسطورى . هو الشاطر بشير ، وهى ست الحزن والكمال . خطفها على فرس وطار بها .. إلى قصر عال .. طوبة من فضة وأخرى من ذهب .

ـــ اشرب الشاى يا بنى .

نظر إلى الكوب الوحيد مرة .. وإلى عزة أخرى . عادتْ الخالة إلى داخل الدار ، وعاد هو إلى داخل نفسه . حاولْ أن تقول شيئا يا زول . الكلمات تموت دوما على شفتيه .. يقتلها الفقر . لفت عزة الثوب الأبيض فى حياء ، محاولة أن تبعد عينيها حتى لا تلتقيا بالعينين الحائرتين . جدا

عجيب أمرك يا عزة .. لم أنت صامتة ؟ لا .. شىء بالمرة ، إنه صمت العذارى . الحزن الذى يكسو وجهها يشى بأن الأمر ليس خجل العذارى ..!!

سبعُ سنوات مضت وهى تعيش على أمل .. أصبح سرابا . لو كنت تحبنى كما تدعى لأعرسْتَ منذ سنوات . كثيرات من جاراتى وصديقاتى جاءهن العريس ، بل إن بعضهن تزوجن .. وأنجبن .. وأنت تضيع زهرة شبابى .!

من المسئول عن موت البسمة على أفواه العذارى ؟! لا يزال الأمل يراوده . لا بد أن يقول شيئا . إذا جبن المرء أمام من يحب فماذا يصنع إزاء من يكره ؟!

ـــ كيف أنتِ يا عزة ؟

ـــ وأنت شنو ؟

انضمت الخالة إليهما فى حوش الدار ، وأخذت تثرثر عن بنات الجيران اللاتى جاءهن العريس ، وعن بابكر الذى يعمل دائما فى الليل ، يا كبد أمه .! أحس أن سطح الحوش يغوص به إلى قعرٍ بلا قرار ، وسؤال عزة يتردد بمودة وعتاب : أنت شنو .؟!

***

حاول أن ينتقل من ناحية النيل الأزرق إلى ناحية الخرطوم . بينما كان يعبر الشارع ساهما بالقرب من فندق هيلتون ، ظهرت فجأة سيارة مرسيدس تسير بسرعة شيطانية . لم يتحرك . وقف كأنما ينتظر خاتمة

خرافية لحياة عبثية . اختلطت فى ذاكرته المجروحة عوالم شتى : قبة المهدى .. طيف جده ووالده .. صورة أمه وعزة .. رئيسه فى العمل .. ألوان قوس قزح . توقفت السيارة على قيد إصبع ، وصوت الفرامل يُحدث شرخا فى سكون الليل . نزل منها — هائجا — رجل ضخم فخم ذو عمامة كبيرة ووجه يلمع فى الظلام . كاد يسقط إعياء ، لولا أن أمسك الرجل الفخم الضخم بتلابيبه . لم تعد لديه آذان تسمع .. شيئا .. فشيئا .. بد .. أت .. تصل .. إلى مسامعه بعض الكلمات .. بهيم .. غشيم .. كلب ضال .. من أين جئت ؟ لم تبدر منه أية حركة .. أو كلمة . هزّه الرجل وهو يقذفه بعيدا ، كما تقذف الليمونة بعد عصرها ، وصاح فيه :

— أنت شنو ؟

طار الرجل الضخم الفخم بالسيارة كأنه عفريت ، ذاب فى ليل بلا ضفاف ، وسؤاله لا يزال يملأ ما بين النيل الأزرق والسماء .. وصوته يردد فى عنف وقسوة :

أنت شنو .؟!

***

أحس أنه يتوه بين شوارع العاصمة كما تضيع سمكة صغيرة فى بحر لجّى . مر أمام قصر الصداقة ، بدت فى الناحية الأخرى لافتة كتب عليها « النصب التذكارى لإراقة الخمر » . جف ريقه .. تمنى أن يبصق ، حتى هذا لم يعد قادرا عليه . انعطف ناحية حىّ المقرن ، قدماه تسيران دون وعى ، تعرف طريقا قطعته سبع سنوات . هذه هى النتيجة .. التعب ..

الظلام .. الوحدة .

أصوات متنافرة بعيدة تأتى من داخل سور حديقة الحيوان . أحس أن صوته حبيس . أدرك أنه يسير فى الظلام . الذى فى داخله ظلام لا يرى فى الكون نورا . ثارت فى داخله العواصف ، كاد يشك فى أنه يحب عزة . كيف يشك فى الشيء الوحيد الذى يؤمن به ، ويستمد منه الأمل والألم . تمنّى أن يبكى على من .. أو على ماذا .. لا يدرى !؟ بدأ الجوع يزيد من إحساسه بالكآبة والعجز . لو كان العجز رجلا لقتلته لكن العجز الآن هو أنا .. أنا بشير إبراهيم الطيب ، حفيد الشيخ الطيب الذى كان من أنصار المهدى منذ مائة عام . حدثنى الأب كثيرا عن بطولاته وكراماته .. كان كما تصورته المثال الكامل للإيمان والرجولة والبطولة .!! كان أبى يصحبنا ونحن صغار كى نأخذ العهد بجوار الضريح، ويطلب منا أن نقرأ سورة « الإخلاص » إحدى عشرة مرة .. ثم يناجى كل منّا ربه بما يريد ، وسوف يستجاب له . ورث أبى عن الجد بعض فدادين يشمّ في ترابها ذكراه . الأرض بالنسبة له كانت كل شيء فهذه وصية الجد « الأرض هى العرض .. من يبيعُ أرض جدوده فقد باعهم بثمن بخس » . استجاب أخى الكبير للوصية ، أما أنا فقد تركت الأرض .. والريف بحثا عن الوظيفة وحياة المدينة . منذ الصغر وأنا لا أقدر على الصبر والانتظار . عملتُ ساعى بريد فى هيئة التنمية الدولية . كل يوم أذهب بخرج من الخطابات وأعود بغيره . الخطابات تذهب وتجيء .. تجيء وتذهب .. أما التنمية فعلمها عند علاّم الغيوب . حسبت أنى بالثلاثين جنيها أستطيع

أن ألبس جلبابا أبيض ، وآكل خبز القمح ولحم الضأن وأن أدخر مهر عزة ، وأبر أمي وجدتي . لكن الغلاء ظل يسمن على راتبي وبعض نضرة كنت أتمتع بها قبل العمل . يوم استلم الراتب تحاصرني روح أبي عاتبة : لم تركت أرض جدك يا بشير ؟ لم بعت الثوب الأخضر بجلباب أبيض .. أنت شنو ؟!

***

اختلطت في الرأس المتعب عوالم الأحياء والأشياء ، وتداخلت الأحلام والكوابيس . مضى في طريقه وشبحُ الرجل الضخْم الفخم والسيارة المسرعة يطاردانه . رغم الجوع والوحدة أحس أنه يملك ميزة لا يملكها سواه .. إنه وحده يقظان والكل نيام . تمنى أن يُلقى بنفسه في النيل حتى يتطهر .. ويخرج رجلا آخر ، فيه شيء من جذور الجد الطيب . خشى أن يبتلعه حوت مثل يونس ، سرعان ما قال لنفسه إن الحيتان اليوم تعيش على البر .

حاول أن يعبر الشارع . أخذ ينظر يمينا ويسارا خشية أن تصدمه سيارة أخرى . تعجب لما حدث له الليلة . عجيب أن يُسأل سؤالا واحدا أكثر من مرة في ليلة واحدة ، والأعجب ألا يعرف له إجابة واضحة . هناك مواقف في الحياة لا يقدر الإنسان فيها أن يعرب عما بداخله وهو مع الآخرين ، لكن كيف لا يستطيع عمل هذا وهو يحدث نفسه : أنت شنو .؟!

***

مضى يعد خطواته حتى يتشاغل عن وساوسه . أحس حركة سيارة تأتى خلفه . اطمأن لأنه يسير على الرصيف . توقفت السيارة بهدوء على مقربة منه ، صوت ينادى :

— بشير .. تعال يا بشير .

لم يكن يصدق أذنيه .. ولا حتى عينيه . بابكر ابن خالته سائق شاحنة تنقل البضائع والخُضروات بين العاصمة والقرى المجاورة . أخذ يجر ساقيه المجهدتين . صافحه بضعف .

— لم تبدو يدك باردة ؟

— لست أدرى .

أحس أن مفاصله قد تفككت ، وأن أشلاء جسده مبعثرة . الإنسان لا يعرف حجم التعب إلا بعد الراحة . تمنى لو استطاع أن يسوق الشاحنة ، إذن لأخذها وهدم القصور والبيوت .. ثم يجرى .. ويجرى إلى أن يصل إلى القرية ، إلى قبر جده . لكن الجد الطيب صار مجرد ذكرى ، حتى سيفه التاريخى أصبح صدئا ، لا يعرف من ورثه ، بل ربما باعه الوريث من أجل كسرة خبز وقطعة جبن . أمر عجيب يا جدى : لقد خرج الإنجليز منذ سنوات بعيدة ، لكن الأرض تصحرت والجفاف انتشر ، والسماء .. لما تمطر بعد .!

— مالك يا زُول ؟

أيقظه بابكر من شطحاته ، بينما الشاحنة تعبر أحد الشوارع الضيقة .

— هل حدث شىء فى القرية يا بشير ؟

ــ لست أدرى .!

ــ لا تبدو على خير .. لماذا ؟ قل أنا أخوك .

ــ أحس أن روح جدى الطيب غير راضية عنى .

ــ يا رجل ما زلت تقرأ الروايات ، وتحفظ المواويل ، ألم أقل لك اترك وظيفتك وتعال أعلمك السواقة .

ــ حتى أمى أصبحتُ أحس أنى غير جدير بحبها .

قال معابثا وهو يحرك عجلة القيادة : ألا يكفيك حب خالتك و ...؟

ــ لا بد من عمل شىء .

ــ ما هو ؟

ــ لا أعرف بالضبط . سكت قليلا ثم أردف : هل معك نقود ؟ إنى جائع .

ــ معى بعض قروش ، لكن هل سنجد خبزًا الآن ؟

ــ لست أدرى .. على أى حال ليست هذه أول مرة ..

نظر إلى صديقه نظرة إشفاق . مال بالعربة إلى شارع المناضل القديم على عبد اللطيف ، حيث يسكن بشير . رآه تائها وسط جلبابه الأبيض . شعره أشعث وعيناه قلقتان . أدرك بعض ما يعانيه . كيف يستطيع فقير أن يساعد فقيرا فى الظلام ؟ خطرت له فكرة مباغتة :

ــ ليس معى الآن نقود . سأقدم لك بعض المساعدة . سأعطيك ثروة لا تقدر .. أعرف أنك لن تستفيد بها . سوف تجد أكثر من مشترٍ . أنا سائق وأعرف قيمة البترول اليوم فى الخرطوم . بعض الأثرياء يمكنهم شراء

سيارة بسهولة ـ ونحن لا نجد رغيف خبز ـ لكن المشكلة عندهم هى البترول . أرأيت كيف ستكون سعيد الحظ ، وكم أضحى من أجلك أيها الصديق العزيز.؟

بعدتْ الشاحنُة عن الأضواء التى تحيط بالسفارة الأمريكية ، التى بدت مثل قلعة شامخة وسط بعض المساكن الشعبية . مال إلى ظل بنك فيصل الإسلامى ، الذى بدا غارقا فى الصمت والظلام . بعيدا عن الشارع نزل سريعا ، وطلب من بشير أن يلحق به . أخرج خرطوما وعلبة فارغة . أعطاه العلبة بينما وضع أحدَ طرفْى الخرطوم فى خزان الوقود والآخر فى فمه . أخذ يسحب نفسا عميقا . تدفق البترول فوضع الطرف الآخر فى العلبة . تبادلا نظرات حب وخوف . الوقت يمر بطيئا .. ثقيلا .. كئيبا .. جارحا . تطاولت الثوانى .. وامتدت اللحظات حتى امتلأت العلبة . سحب الخرطوم . أغلق الخزان . قال وهو يفتح باب الشاحنة فى سرعة خاطفة : إياك أن تبيعها بأقل من أربعين جنيها .. إيا .. ك .. إيا ..

طارت العربة .. سار بشير وحده حاملا الثروة التى هبطت عليه من السماء .

أربعون جنيها مرة واحدة ، عظيم .. عظيم جدا . نسى كل الآلام . بدأ يفكر .. بشيء من الثقة . المال يجعلنا أكثر قدرة . المال .. المال .. كل شيء فى هذا العالم المجنون . أربعون جنيها مرة واحدة .. ماذا يفعل ؟ آه .. سوف أزور قبر جدى وأبى .. وأرى أمى وأحمل لها هدية . لكن الإجازات الآن ممنوعة . لا بأس فلتؤجل زيارة الأم . الأم دائما سمحة ، تغفر مهما

طالت الغيبة وقست القلوب . لكن .. لم أفكر فى البعيد وأنسى القريب ؟ سأزور بيت الخالة .. وآخذ هدية لعزة .. عزة يا حبيبتى .. سوف أكلم بابكر فى أمر الخطبة ، ولو أدى ذلك إلى بيع نصف الفدان الذى ورثته عن أبى وجدى .

حمل كنزه الثمين ، ومشى منتشيا . أحس أنه بدأ يدرك أشياء لم يكن يعرفها . أخذ يسير على مهل وهو يتأمل البيوت النائمة والليل المطبق . أحس بضيق حين تذكر الليل . تمنى أن يطلع النهار .. وتمنى أن يغنّى ، وأن يصل صوته إلى عزة فى ميدان الأنصار .

نسى عمله وهيئة التنمية وقبر الجد الطيب وسيفه ، كما نسى الجوع والتعب . فجأة مرَّ بخاطره شبح الرجل الضخم الفخم . أحس أمعاءه تتقلص والعربة الفارهة أضواؤها تعشى عينيه . فاجأه شرطى نحيل فى ملابس زرقاء وقبعة سوداء ... لا يدرى من أين جاء ؟ شهر أمامه المسدس وصوبه ناحيته ، وهو ينظر إلى علبة البترول بأكثر مما ينظر إليه وصاح فيه بغلظة : أنت شنو[1] ؟!

(١) الخرطوم ١٦ يناير ١٩٨٥ ، ونشرت فى مجلة « إبداع » العدد (٩ / ٣) سبتمبر ١٩٨٥ .

القلق .. فى عيون تبحث عن الأمان

(حكاية الليل والطريق)

سبحا الليل وهدأت المدينة . نام من فى البيت واستيقظت فى أعماق جذور القلق . حاولت أن أتمثل معالم الحجرة التى أعيش فيها . لم أر شيئا .. ولم أتخيل . تعلقتُ بفتحات شيش البلكونة . ضوء خافت يدخل على استحياء فى خطوط متعرجة . تمنيت أن أفتح الأبواب وأن أصيح . ماتت الصيحة فى أعماق ، كما تموت الحركة فى جوف الليل . الليل .. الليل مظلم ومخيف ، ولكن هل يمكن أن يكون للنهار معنى لو كان الزمن بلا ليل ؟ ليست هذه هى القضية وإلا لما سهرت ، لما عانيت من كل هذا القلق الذى يخرج من خلايا جسدى ؟ القضية يا ابتسام هى .. هى إيه ؟ لا قضية ولا كلام .. أنا تعبانة .. تعبانة .. آه يا أنا . رغبة عنيدة سيطرت على أعصابى المرهقة .. سأبدد قلقى . سوف أفتح باب البلكونة وأصيح بأعلى صوتى تعبانة .. أنا تعبانة يا عالم . اضطربتْ أنفاسى وأنا أتخيل نفسى بقميص النوم وشعرى الأسود يتدلى خلف ظهرى . عيناى تجوب الجهات الأربع . روحى تكاد تزهق .. تعبانة يا عالم . سيارة مسرعة أشاعت ضوءا فى محيط راكد . أفقت ، استيقظت انسحبت من أحضان أختى التى تأكل أرزا باللبن مع الملائكة . آه يا ليل .. يا قمر .. آه يا أنا . خرجت من الحجرة ، مشيت على أطراف قدمى حتى لا أوقظ أهل الكهف . أغلقت باب الحمام فى صمت . أشاع الضوء جوًا من السكينة . لكنه لم يخفف من حدة القلق . الماء منعش ولذيذ . فتحت

الحنفية .. يمينا .. يسارا .. لا فائدة . كل هذا النيل العظيم ولا نقطة ماء . تأملت وجهى فى مرآة مشروخة فوق الحوض . من هذه العذراء الحزينة ؟ ابتسام .. يا سلام .. غير معقول ؟ نظرت فى المرآة أكثر .. أكثر . عيناى بالقلق والأرق صارتا غائرتين إلى الداخل . سرداب من الحزن طوله خمسون ذراعا يمتد .. يمتد بعيدا داخل عيون لا تعرف السعادة . يا خسارة وألف خسارة،بحر الحنان أصبح بحيرة الحرمان والأحزان . عجبى .. عجبى على بنت بيضاء واسمها ابتسام . عطشانة يا صبايا ، يا صبايا دلونى على السبيل . آه يا بابا كل هذا القلق ينمو فى داخلى وأنت لسْتَ هنا . لِم لَم تعلمنى فنَّ اللعب على كل الأحبال . حين أشكو لك همى بعد كل جرح تردد : الصبر مفتاح الفرج . أشعر يا بابا أنى لست وحيدة،لكننى رقم تائه وسط جيل مضيع . أخذت أمشط شعرى فى المرآة المشروخة وأنا أترحم على عمرى .. على خمسة وعشرين عاما مرت مثل كابوس مزعج . أنت السبب .. وأنا النتيجة .. لكنك تسبح فى نوم عميق . بفرحة طفل يدفعه السأم إلى المغامرة وجدت علبة سجائر فى الركن وحيدة .. وحيدة مثلى . يقولون إن التدخين يخفف الهم .. حتى الأطباء ينصحونك بعدم التدخين وهم يشعلون سيجارة من أخرى . كله كلام ، الكلام أربح تجارة اليوم . لم لا أجرب ؟ لن أخسر شيئا .. حتى لو خسرت .. يا سيدى قل يا باسط . تخيلت أن كل شيء فى المكان ينظر إلىّ . ترددتُ .. حاولت أن أتراجع . تراجعت .. ترددت .. القلق . عاودت وقررت أن .. دخلت الحجرة ومعى السيجارة وعلبة

الكبريت . أغلقت الباب فى هدوء . افعل ما تشاء ..المهم الهدوء . افعل ما تشاء المهم ألا يراك أحد . أختى نائمة.. من يضمن أنها لن تصحو. ؟ لا شيء مضمون فى ليل القلق . إلى البلكونة .. إلى الهواء الطلق يا ابتسام . نور المصباح يكاد يعشى بصرى . نظرت فى الأفق البعيد . بدت تلال المقطم تائهة فى الصحراء ومآذن القلعة ترفع أيديها إلى السماء . أدخن أولا أدخن ليست هذه هى القضية ؟ أشعلت السيجارة . ابتلعت الدخان فى نشوة . كحة حادة كتمتها حتى لا أضبط متلبسة بالتدخين . تأملت الدخان والنار فى صمت . القلق .. الأرق .. الليل . الوحدة تجعل منا فلاسفة بدون منطق ومحاربين بغير سيوف ومحبين بلا محبوب .!! من يصدق أن هذا الصمت المطبق يجيء بعد زحام خرافى ؟ القاهرة الجميلة صارت مثلى . نحن الآن وجها لوجه يا قاهرتى . كلانا متعب ولكن من الذى أتعب فينا الآخر ؟ أخذت نفسا من السيجارة وأنا أحس بنشوة ميلاد جديد.. برودة منعشة تلسع ذراعى العريانين . مصباح وحيد يضيء حارتنا ... انطفأ لماذا لست أدرى .. ولا أظن أن المصباح نفسه يدرى .. ومن قال لا أدرى فقد أفتى ، وفى رواية أخرى من قال لا أدرى فقد أفنى والله أعلم . إحساس بالعدم قوى مشاعر القلق وسط ظلام الفكر وظلمة الحارة . لا شيء يظهر فى الظلام سوى بركة طفح المجارى . نجوم شاحبة تتلألا هناك .. بعيدا فى السماء . قوى فى نفسى إحساس بأنى مازلت على الأرض . ها أنا مرة أخرى معك يا مدينتى وجها لوجه . لا أتستطيع أن استمع إليك . لكن أنت .. أنت أمى مصدر سعادتى

وهمى . استمعى إلىّ .. استعمى فالظلام لن يكشف ما بيننا من أسرار . كنت مفتونة بشعر الحب وأغانى الحياة . أفقتُ على وهْم كبير . النذل الذى أدعى أنه يحبنى، كان يريد أن يحبسنى داخل جدران البيت . يوم حصلت على بكالوريوس التجارة ، رفضت الخطيب النذل رغم معارضة أبى وأمى . أصبحت سطرا فى دفتر شئون العاملين . ولكن ليس بالعمل وحده يحيا الإنسان . آه يا أمى .. آه يا ليل ...

أنا لوْ شَكيت رُبع مابى للحديد ليْذُوبْ
الأولة غُربتى والثانية المكتوب
التالته كنت غالب صِرت أنا مغلوب
زعقت من عِزم ما بى وقُلت يا أيوب
كاس الهنا كل ما اديره ييجى مقلوب
وانا لو شكيت ربع ما بى للحديد ليدوب .

اصغى إلىّ يا مدينتى فالدنيا ظلام ، والقلق يرفرف علىّ مثل بومة الأرض الخراب . تعبت حتى فهمت أسرار العمل ومكائد الزملاء . فى البيت كانت تنتظرنى متاعب أخرى . أمى تريد أن أتزوج أى رجل والسلام .. يا ابنتى ظل رجل ولا ظل حائط . لن أحيا مرتين . اخترت ظل الحائط . أحضر لى أبى عجوزا غنيا بحجة أن الرجل لا يعيبه سوى جيبه . رفضت مال القرد وزواله . أصبحت بالنسبة لوالدىّ حالة مستعصية . ضحكتُ ملء فمى، حين قالت لى أختى إن أمى أرسلت منديلى إلى أحد المشايخ ليرى الأثر ويعمل الحجاب اللازم . معقول .. فتاة

جامعية تحل أزمتها بهذه الطريقة . سامحك الله يا أمى . قررت أن أرى فى الرجال الذين أتعامل معهم فى شركة التأمين جانبا آخر غير الدفاتر والمستندات . يعمل معى خمسة عشر رجلا . سبعة متزوجون على طريقة جُحا ، وثلاثة فاتهم القطار ، والباقى خمسة شبان .. اثنان منهما يحلمان بالهجرة إلى الخارج عن طريق أى وسيلة . لا حبَّ .. ولا سكن بغير المال .. المال . يساوى قرشا من معه قرش . الثلاثة الآخرون حيارى .. لا يعرفون ماذا ..؟ واحد من الذين فاتهم القطار قال لى أثناء فترة التدريب :

ــ اسمعى يا آنسة ، سأقول لك سرًا ، أنا من أنصار أبى العلاء المعرى ؟

ــ هل كان أبو العلاء يساريا أم يمينيا أم ...؟

ــ لو بيدى لسحبتُ منك البكالوريوس . لا تصدق البغبغة التى يرددها كثير من الأدعياء . ليس المهم هو اللافتة أو الشعار ، المهم المضمون .. العمل .. العمل الصحيح .

ــ أنت مناضل قديم ومثقف قدير لن أقوى على النقاش معك ، قل حكاية أبى العلاء المعرى وخلصنا .

ــ منذ ألف سنة .. ألف سنة تصّورى .. أبو العلاء اختار العزوبية بإرادته الحرة ، أحس بمدى صعوبة الحياة فقرر ألا يتزوج حتى لا يأتى بأبناء يشربون من مُرّ كأسٍ ذاقه .

ــ وأنت يا أستاذ نصر المعرى ؟

كدت أضحك . نظر إلىّ نظرة عتاب فاصطنعت الجد .

ـ الآن ظروف الحياة الصعبة هى التى تضطر الإنسان إلى رفض الزواج .

ـ وعواطف الإنسان واحتياجاته ؟

ـ إذا لم يتمكن من تلبيتها بشكل إنسانى يضعها فى صندوق مغلق ويرمى المفتاح فى جُبّ عميق .

أحسست فى حديثه بقدر من المرارة . ترى لم يترك المناضل قضيته .. ويستسلم ؟ هل كان يعتذر أم يبرر ..؟ بقدر ما فهمت كلامه إلا أنى أحسست أنه مسئول ، عن ماذا بالضبط لا أستطيع التحديد ؟ المهم أن كلماته لم تكن وحدها السبب .. لكن الواقع .. والظروف . وقفت اليوم أثناء العودة عند شط النيل . أخذت أتأمل سطحه الساكن عبر ضوء الأصيل . المياه تسير فى هدوء كأنما جاءت من سفر بعيد . الحركة على الشط الآخر أمستْ عسيرة الرؤية ـ إيه يا نيل .. لم لا تتكلم .؟ يبدو لى أنك تعرف أشياء كثيرة ، لكنك صامت يبدو أنك مُصرّ على الصمت الرهيب . مازال القلق يسيطر على كيانى .. وعلى الماضى والحاضر . تمنيت أن تكون أسطورة عروس النيل ما تزال سارية المفعول حتى ألقى بنفسى ونفيسى بين أحضانك . يا ليل .. يا ليل تعبانة . يا بابا .. يا ماما تعبانة . ولا يزال المصباح غارقا فى الظلام . احتضنتُ نفسى وكتمت أنفاسى . أتزوج أو لا أتزوج ، تلك هى القضية ؟ ولكن أين الرجل .. والرجال قليل . انكمشت داخل أحزانى . تطايرت خصلات شعرى . أحسستُ لأول مرة أنى قد وضعت رأسى بين قوسيْن طيلة خمس وعشرين سنة ، منذ

ولدت فى برج السرطان . حاولت ــ رغم الظلام ــ أن أتخلص من كابوس عشت فيه . حاولت أن أعود إلى الحجرة . تذكرت أنى كنت أسير بغير شبشب . سطح البلاط يزيدنى إحساسا بالبرودة واحتياجا إلى الأمل . سيطرت على خاطرى فلسفة أبى العلاء المعرى وثورية نصر وعظمة أسوار القلعة . كنت أظن أنى أسير ناحية السرير فإذا بى اصطدام بالحائط . لعنت الظلام، لكنى قلت لنفسى : أنْ تُشعل شمعة خيْر من أن تلعن الظلام . خرجت أبحث عن الشمعة وحديث الليل يغرينى بأن أواصل المسيرة[١] .

---

(١) كتبت فى إبريل ١٩٨٣ .. ونشرت فى مجلة « الفيصل » السعودية العدد (٩٧) .. رجب ١٤٠٥ ــ إبريل ١٩٨٥ .. وفى جريدة « الأهرام » القاهرية .. يونيو ١٩٨٣ .

كن عاقلا يا حبيبي ..!!

كانا يجلسان ــ على صخرة فى الناحية الشرقية لهرم خفرع ــ مثل جزيرة نائية فى محيط لا ضفاف له . تأمل ــ فى حسرة ولوعة ــ عينيها الصافيتين .. تشعان بالأمل والحب ، وسط وجه أبيض رقيق رشيق ، مشوب بحمرة هادئة عند الخدين . نظر إلى الصحراء المترامية والجموع المحتشدة . زحمة يا دنيا زحمة ..!! كانت شاردة مثل ملاك مطارد ، هبط فجأة إلى عالم العفاريت الزرق . ضاع الكلام .. وعجز اللسان ، وتبادلت العيون النجوى . لغة اللسان لغة مألوفة . البلاغة كلها فى سحر العيون .. العيون التى تعرف الطريق . أحسا ــ معًا وفى ذات اللحظة ــ أنهما لو بقيا أكثر فسوف يصبحان مثل الصخرة التى يجلسان عليها . سارا متشابكى الأيدى .

ــ كل مرة أقول لك يا حبيبى مكان المرأة دائما على يسار الرجل ، لكنك ...

ــ ما دخل اليسار واليمين فى علاقتى بك ؟ يكفى أن أكون بجوارك .

حينما مشت بجواره ، أحسَّ نشوة ملائكية سرتْ فى كيانه . تذكر أمرًا يحول بينها وبينه ، بنفس القدر الذى يوجد فيه أمر ، يحول بينه وبينها .

ــ منى .. ماذا فعلت مع ماما ؟

ــ أحمد .. أحبك .. أحبك .

استعادت حديث أمها معها بالأمس .

ــ ما نهاية حكايتك معه ؟

ــ لم تسألينى عن أمر تعرفين رأيى فيه ؟

ــ جيل آخر زمن .. تمارسون الحب كما تشاءون بكل استهتار ، وتطلبون منا فى النهاية الموافقة بدون قيد أو شرط ، كأننا مدعون ولسنا الأهل .

ــ أنا التى سوف أتزوج .. هذه حياتى أنا يا أمى ، لم تغضبين ، وتنغّصين حياتى وحياتك بلا سبب ؟

ــ لم مات أبوك وتركنى وحدى للهمّ ؟

الأم تريد أن تزوّجنى من جارنا المعلم سليمان .. أو الحاج سليمان كما يسمونه هذه الأيام ، تاجر قدّ الدنيا ، يملك مصنع أحذية .. ومحلا لبيعها . عنده شقة وعربية .. ورصيد فى البنك بالعملة المحلية والحرّة . زحمة يا دنيا زحمة ..!! لن أتزوجك يا ابن الحذاء ، بل إنى لو كنت متزوجة منك لهربت إليه .. إلى أحمد حبيبى .. يهيأ لى أنه لو خرج من حياتى لاهتزت الأرض ، وانتقلت القاهرة مكان الإسكندرية ، وغاصت الإسكندرية فى البحر .. وجاء الطوفان . تجار السوق السوداء والزرقاء شوّهوا القيم وخربوا النفس . بالحب وحده يا أحمد نرى الدنيا بعيون بيضاء وقلوب نقيّة.!!

ــ لماذا لا تجيبين على سؤالى ؟

ــ ألا يكفى أننى معك ؟

أدرك سرَّ صمتها . ما فائدة الكلام ..؟! أمها مثل أبى ، فهو أيضًا غير

موافق ، وأقسم بكل الإيمان ألا تدخل منى بيته . « يا ابنى ، لعب الأطفال ــ هذا الذى تسمونه الحب ــ شىء .. والزواج شىء آخر . الزواج مسئولية وفتح بيت . ألم تفكر كيف ستفتح بيتا بالخمسة والأربعين جنيها التى تقبضها . »

اقترب منهما شرطى من شرطة السياحة . أخذ يحملق فيهما بقدر من الريبة .

اقترب الشرطى أكثر .. فاضطر إلى أن يترك يدها ، وأن يسيرا فى صمت ، كأنهما فى جنازة . فى ذات اللحظة التى أولاهما الشرطى ظهره ، طبع على خدها قبلة حارة سريعة .

ــ الناس يا حبيبى .

ــ ما شأنهم بنا ؟

ــ على الأقل يحسدوننا .

ــ ألا تؤمنين بالحرية ؟

ــ لا تنس أننا فى مكان عام .!

ــ أميت نفسى ، هذه الدنيا العريضة لا نجد فيها مأوىً حتى فى الصحراء .!!

الزحام .. تلوث البيئة .. السمن الهولندى .. الفراريج الدينماركية .. لحم الهامبورج .. اللبن البودرة .. ملابس تايوان .. بضاعة اليابان ، كل هذه الأمور جاءت ــ من الباب المفتوح على آخره ــ وجاء معها صداع ، لا يزيله أى نوع من الأسبرين . صداع هذه الأيام صداع

إجبارى ، تصرفه إدارة القوى العاملة أو العاطلة لكل حامل شهادة يقف فى الطابور .

منطقة الأهرام ــ يوم السبت ٢٦ ديسمبر ١٩٧٩ ــ احتشدت بناس من كل الدنيا . خُيّل له لحظة أنهم جاءوا ... يشهدون أزمته ، ويسخرون منه ، أحس أنه ثقيل الظل حتى على نفسه .. كيف يفر بخواطره بعيدا .. بعيدا عن منى ؟! أشعة الشمس أزالت كل أثر لبرودة « طوبة » . كانت فى نظرة مثل يمامة تعبت من السيْر والسّرى فى صحراء الحياة . تمنى أن يأخذها ويطير . أمسك يدها بحنان .

ــ أحبك يا منى .

ــ الحمد لله .. أبو الهول نطق .!

ــ آسف يا حبيبتى .

ــ لا تعتذر عن أمر ، لست مسئولاً عنه .

فجرت ينابيع الأحزان من جديد داخله . تصورى يا منى أبى العزيز يساومنى ؟ لو تزوجت ابنة رئيسه فى العمل ساعدنى فى كل شىء .. ولو أصررت عليك حرمنى حتى من النصيحة .. ومن رضاه علّى .. !! لم أكن أود أن أكون ابنا عاقًا ، لكنه يدخلنى فى صراع غير متكافىء . نحن فى عصر القهر والكبت يا منى . صعب أن نقول (لا) فى هذا الزمن المر . فى عصر الآلة مطلوب من الإنسان أن يكون آلة أخرى ، لا يفكر .. لا يقول رأيه .. لا يختار ما يريد . الصين اقتربت من أمريكا ، والسعودية تعاملت مع روسيا . الإنسان وصل إلى السماء ، ونزل إلى

أعماق البحار ، لكن صعب .. صعب جدًا يا منى أن يصل إنسان إلى أعماق آخر . عصر الدجاج المجمّد .. واللبن البودرة .. والصداع الذى لا يزيله أىّ مسكّن . زحمة يا دنيا زحمة .!! إيه يا مصر .. هذه ليست أول محنة . تخيل النبى يوسف .. والبقرات العِجاف .. والبقرات السِّمان . لكنه أدرك أنه فى عصر آخر .. عصر البقرة الضاحكة .. هاها . زحمة يا دنيا زحمة.. ها ها .

أفسد عليهما سحر الصمت والنجوى بائع متجول .

ـ جعران يا أستاذ من أجل الهانم .. ذكرى . انظرْ يا باشمهندس .

ـ بكم ؟

ـ خمسة جنيهات فقط ، من أجل الهانم ، ربنا يخلّيها لك يا دكتور .

ـ يا بنى آدم .. أنا لا أستاذ ولا مهندس ولا دكتور ، ابعدْ عنّى .!!

ـ لكن الهانم معجبة به .. انظرى يا هانم سوف يحرسك من العين بإذن الله .

تخيل البائع فى هيئة ذبابة زرقاء . انتزع الجعران من يده ، وقذف به بعيدا .. بعيدا . تهيأ كأنما يريد أن يدخل فى معركة معه . تداركت منى الموقف بسرعة ، وأخرجت جنيهين كانا فى حقيبتها ، وأعطتهما للبائع ، فمضى فى صمت ، بينما نظرات عينيه تقول أشياء ..!!

أحس أنه بعير أجرب وأن الفقر يطارده فى كل مكان . ضاقت الدنيا واسودّتْ . لا أمل .. لا فائدة . من يحارب .. وبأى سيف .. وهو ضعيف مسكين !؟ تجمع صداع الكون كله فى رأسه .. زحمة يا دنيا

زحمة . لا يدرى كيف أطلق ساقية للريح .. وأخذ يجرها معه ، كأنما يريد أن يهرب بها من الدنيا . أخذ يجرى .. وتجرى .. يجرى .. وتجرى . كلما حذّرته من أنها لا تستطيع الجرى مثله ، لم يتكلم و لم يكف عن الجرى . يجرى .. ويجرى .. ويجرى وهى تحاول اللحاق به . غاصتْ قدماها فى الرمال ، فوقعت متهالكة بالقرب من هرم منقرع .

انكشفت الغمة عن ناظريه وبدأ يفيق . لقد تعب كثيرا .. وأتعبها معه أكثر . تأمل وجهها ، كأنما يراه لأول مرة . لم يعبأ بالرمل الذى علق بثوبها أو تطاير على وجهها . عاود النظر إليها وهو يساعدها على النهوض والقيام ، وإزالة آثار الرمال . لا تزال الريح تعبث بشعرهـا الأسود المسترسل . وجه منى يشع حبا وأملا وثقة . ازداد إيمانا بها واحتراما لحبهما . الحب ليس عاطفة مجردة ، إنه رغبة عنيدة فى الخلق والوجود ، من أجل ان تستمر الحياة . لا بد أن تكون شجاعا . هذه لحظة تحدٍّ من أجل الخلق والوجود . زحمة يا دنيا زحمة . لا بد أن نبحث عن أمل رغم الزحام والصداع والسوق السوداء والزرقاء .

ـــ أتقبلينى زوجا يا منى ؟

ـــ اتفقنا على هذا منذ سنوات .

ـــ إذن هيّا بنا .

نظرت إليه فى دهشة : إلى أين ؟

أجاب وهو يمسك يدها بقوة : إلى المأذون فورا .

ـــ وكيف نعيش ؟

— الحب يصنع المعجزات .. إذا لم نجد مأوىً فى بيت أبى أو أمك فسوف ....

ما زالت تنظر إليه فى دهشة ، غير مصدقة ذلك التغير الهائل الذى حلَّ به .

— سوف ماذا ؟

— سوف نبنى عشًا على أى سطح .

— والناس ؟

— لا دخل لنا بهم ، ولا دخل لهم بنا .

— هناك أشياء أخرى .

— مثل ؟

— الشبكة .. والمهر .. والجهاز .. والفرح ...

— الدنيا يجب أن تتغير . كل شيء يمكن تأجيله أو تعديله إلا نداء الحب .!!

قالت وهى تشدّ يده كأنما تريد أن توقظه من حلم :

— كن عاقلاً يا حبيبى .!!

فردّ وهم يحكم وضع كفها بين كفيه :

— و لم لا أجرب الجنون[1] ؟!

---

(١) القاهرة — الدقى — ديسمبر ١٩٨١

نشرت فى : مجلة « الثقافة » القاهرة — أغسطس ١٩٨٢

جريدة « الراية » قطر — ٩ ديسمبر ١٩٨٥

مجلة « العروبة » قطر مايو ١٩٨٩